ما الإنسان؟ هل هو آلة؟ هل يقدر على استحضار أفكار جديدة من العدم؟

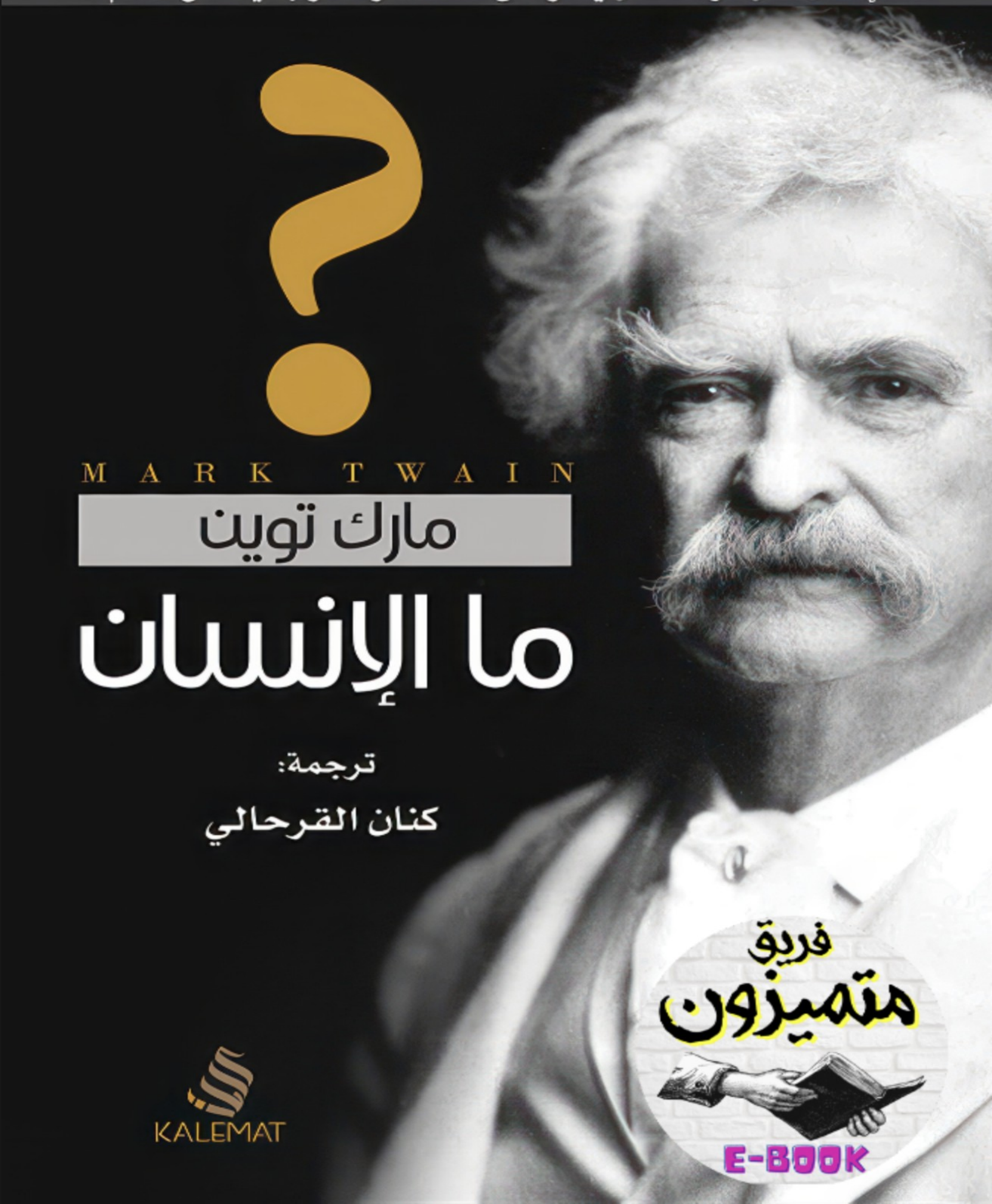

MARK TWAIN

مارك توين

ما الإنسان

ترجمة:

كنان القرحالي

KALEMAT

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ما الإنسان؟

ما الإنسان؟ هل هو آلة؟ هل يقدر على استحضار أفكار جديدة من العدم؟

مارك توين

ترجمة: كنان القرحالي

عن الكتاب..

سأقص لك قصة محزنة عن رجل يعمل كالعبيد، يكدح ويجهد نفسه بجمع ثروة طمعا بالما ولم يكن يكتفي، إلى أن تمكن من تحقيق مناله ما جعله منتشيا من السعادة، إلى أن فتك ببلدته وباء جعله وحيدا بائسا، إذ فقد أحباءه يغد أسبوع من انتشار هذا الوباء، انقضت قيمة المال في نظرة بعد هذه الحادثة الأليمة التي مر بها، ما جعله يدرك أن سعادته لم تكن جراء المال نفسه بل من الرضا الروحي الذي حصل عليه عند رؤيته الفرح الذي نعمت به عائلته لتوفر الملذات والاشياء المبهجة بسبب البذل والوفرة.

العبرة من ذلك أن المال ليست له قيمة مادية، فإن استعبدت قيمته الروحية أصبح أشبه بالقمامة، وهذا ينطبق على كل الأشياء المادية دون استثناءات مهما كبرت ام صغرت، عظيمة كانت أم زهيدة، فالتيجان والصولجانات والبنسات والمجوهرات الزائفة والشهرة في نطاق القرية والشهرة العالمية، جميعها بلا قيمة مادية على حد السواء متى حققت لك الرضا الروحي فهي قيمة في نظرك. ومتى فشلت في تحقيق هذا الارضاء فقدت قيمتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-1-

أ. الآلة البشرية

ب. الفضيلة الشخصية

(كان الشيخ والشاب يتحادثان، وفي خضمّ الحديث أكّد الشيخ أنَّ الإنسان ليس أكثر من آلة، فاعترض الشاب على قوله، طالِبًا منه الخوض في التفاصيل وعَرْض الأسباب التي بنى عليها موقفه).

الشيخ: «ما المواد التي يُصنع منها محرّك بُخاري؟»

الشاب: «الحديد والفولاذ والنحاس والمعدن الأبيض، وغيرها».

الشيخ: «وأين توجد تلك المواد؟»

الشاب: «في الصخور».

الشيخ: «وهل تكون معادن خالصة؟»

الشاب: «لا، بل تكون خامات غير مشغولة»

الشيخ: «وهل أُودِعَتْ المعادن فجأة داخل الصخور؟»

الشاب: «لا، بل هي عملية بطيئة وطويلة امتدت على مدى عصور لا حَصْرَ لها»

الشيخ: وهل استطعت صُنْع المحرّك من الصخور نفسها؟»

الشاب: «نعم، لكنه وتبعًا لذلك يكون رديئًا وبلا قيمة».

الشيخ: «وهل يستلزم الأمر الكثير لصُنع محرّكٍ مؤهَّلٍ؟»

الشاب: «لا شيء فعليًا».

الشيخ: «إذًا ما سبيلك لإحداث محرّكٍ متينٍ ومؤهَّلٍ؟»

الشاب: «نحفر جُحورًا ومداخل مناجم في التلال، ونشقُّ منها خامات الحديد، ثم نسحقها ونصهرها ونُحيلها إلى سبيكة حديدية، ثم نقوم بعملية بِسْمِر([1]) فَيَصير فولاذًا، وللحصول على موادَّ لصُنْع النحاس نقوم بتلغيم ومعالجة ودمْج معادن عدّة».

الشيخ: «ثم ماذا؟»

الشاب: «ثم ينتج عن ذلك إنجاز المحرِّك المُتقَن».

الشيخ: «هل تعلّق آمالاً كثيرة على هذا المحرِّك؟»

الشاب: «آه، نعم بالطبع».

الشيخ: «أيمكنه تحريك المخارط([2]) والمثاقب والمقاشط والخرّامات والصاقلات، جملة القول جميع الآلات الدقيقة الموجودة في مصنعٍ كبير؟»

الشاب: «يمكنه فعل كلّ ذلك».

الشيخ: «إذًا وما الذي باستطاعة المحرّك الصخري فعله؟»

الشاب: «ربما لا يحرّك سوى آلة خياطة».

الشيخ: «وهل يُعجب الإنسان بالمحرك الآخر ويُثني عليه متحمسًا؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «وهل يشمل ذلك المحرّك الصخري؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «وهل مزايا المحرّك المعدني تفوق مزايا نظيره الصخري بكثير؟»

الشاب: «بلا شكّ».

الشيخ: «وهل هي مزايا شخصية؟»

الشاب: «ما الذي تقصده بالمزايا الشخصية؟»

الشيخ: «وهل من حقه المُفاخرة بآلية عمله كونها مقدرة شخصية؟»

الشاب: «المحرّك؟ لا، بلا شك».

الشيخ: « ولمَ لا؟»

الشاب: «لأن آلية عمله ليست شخصية، بل إنَّها وليدة نظام تصميمه، كما أنَّ إنجازه الأعمال التي صُمِّمَ لأجلها ليس مَدعاةً للمُفاخَرة، ولا يَسَعُه أنْ يمنع إنجازها».

الشيخ: «أليست نقيصة شخصية أن يكون جهد المحرّك الصخري طفيفًا للغاية؟»

الشاب: «بالطبع لا. فهو لا يعمل إلاّ وفق النظام الذي صُمِّمَ على أساسه، ولا يتعلّق ذلك بأي شيء شخصي؛ فالمحرّك لا يختار. هل تريد التوصُّل من خلال

كلامك في هذا الصَّدد إلى افتراضٍ بأنّ الإنسان والآلة يصبَّان في الخانة ذاتها، ولا يملكان أيّ ميزة شخصية في آلية عملهما؟»

الشيخ: «نعم، لا تؤاخذني، فلستُ أقصد الإساءة. ما الذي يُحدِث الفارق الهائل بين المحرّك الصخري ونظيره الفولاذي؟ أهو التأهيل والصقل؟! وهل بإمكاننا أن ندعو المحرّك الصخري بـ «الإنسان البدائي» ونظيره الفولاذي بـ «الإنسان المتحضِّر»؟ فالصخور الأم كانت تشتمل على المواد الخام التي صُنِع منها المحرّك الفولاذي، بالإضافة إلى الكبريت والصخر وغيرها من مواد موروثة من العصور الجيولوجية القديمة، إنْ جازَت تسمِيَتها بالمخلّفات؛ ولا يملك أي عنصر من عناصر الصخر القدرة أو الرغبة في فصل هذه المخلّفات عنه. هلاّ دوّنتَ هذه العبارة؟»

الشاب: «نعم لقد دوَّنتُها: (لا يملك أي عنصر من عناصر الصخر القدرة أو الرغبة في فصل هذه المخلّفات عنه)، أكمِل».

الشيخ: «يجب أن تُفصَل المخلَّفات بمؤثِّرٍ خارجيّ أو أنها ستبقى مختلطة بالصخر. دوّن ذلك أيضًا».

الشاب: «حسنًا، (يجب أن تُفصَل المخلَّفات بمؤثِّرٍ خارجيّ أو أنها ستبقى مختلطة بالصخر). تابِع».

الشيخ: «وتمنع شائبة الحديد انفصاله عن الصخور التي تُعرقل عَزْله عنها. وعلى نحوٍ أدقّ، إنه عدم اكتراث الحديد بالمُطلَق إنْ تمَّ فصله عن الصخر أم لا. وبعد ذلك يأتي دور المؤثر الخارجي الذي يَسحق الصخرة ويُحيلها مسحوقًا، ما يؤدي إلى تحرّر الخامة، أما الحديد بداخلها فيبقى مختلطًا بمخلّفات، وهنا يعمل المؤثر الخارجي على صَهره ليتخلص من مخلّفات الخامة المُعيقة لانفصاله. في هذه الحالة يصبح الحديد حرًّا، من دون الاكتراث لمراحل تطور أخرى، وهنا يأتي مؤثر خارجي آخر ويقذفه داخل فرن (بِسْمَر)، ثم يصقله حتى يصير فولاذًا ذا جودة عالية. وعلى هذا النحو يصبح مصقولاً، وتأهيله مكتملاً، إلى حدّ اكتفائه الذي يجعل احتمال صقله ليصير ذهبًا أمرًا مستحيلاً. أتدوّن هذه الفكرة أيضًا؟» الشاب: «كلّ شيءٍ له حدوده، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحديد الذي لا يمكن صقله ليصبح ذهبًا».

الشيخ: «ثمةَ بشرٌ من ذهب، وبشرٌ من قصدير، وبشرٌ من نحاس، وبشرٌ من رصاص، وبشرٌ من فولاذ... إلخ. ولطبيعة كلٍّ منهم حدودها وصفاتها الموروثة وبيئتها وتأهيلها. وبالإمكان تصميم محرّكات من كل معدن من هذه المعادن، وجميع المحركات ستقوم بعملها، لكن لا يتوجّب أنْ تنتظر من المعادن الضعيفة أنْ تؤدي عمل نظيرتها القوية. ولكي تحصد أفضل النتائج، عليكَ إعتاق المعدن من شوائبه ومخلّفاته بالصقل والصَّهر والتصفية وغيرها».

الشاب: «ها قد بدأتَ تتكلم عن الإنسان؟»

الشيخ: «أجل، أَنْسَنَة الآلة... أنسنة المحرّك المجرَّد من التأثير الشخصي. أيًا كان الإنسان فهو محكوم بمعدنه وبالمؤثرات التي تؤثر في هذا المعدن كالمورثات والبيئة والروابط، فهو مُنقادٌ وموجَّه بالمؤثرات الخارجية فحسب، دون أنْ يبتدع شيئًا من عنده ولا حتى فكرة».

الشاب: «أوه، بالله عليك! وكيف تبادر إلى ذهني أنَّ كلامك كله محض هذيان لا غير؟»

الشيخ: «إنّها فكرةٌ طبيعية جدًا، ولا بدّ منها في الحقيقة، لكنك لم تشكِّل المواد التي تكوّنت منها فكرتك، فهي حصيلة بقايا أفكار وانطباعات ومشاعر، احتشدت لديكَ باللّاشعور مِن ألْف كتابٍ، وألْف نقاشٍ ومِن تدفّق سيولٍ من الفكر والشعور إلى قلبك وعقلك الصاعدة من باب قلوب وعقول أجيالٍ من أسلافك. إذًا أنتَ لم تبتكر شيئًا من تلقاء نفسك ولا حتى أصغر ذرَّة من ذرَّات المواد التي كوّنت أفكارك، كما أنّه لا يمكنك الادِّعاء أنَّ لديك الكفاءة مهما بلغتْ ضآلتها لوضع المواد المستعارة معًا، فآليَّتك العقلية تشكّل هذا تلقائيًا بالاتفاق التام مع نظام تصميمها، وليس لكَ أي علاقة في صُنع هذه الآلية ولا حتى بالسيطرة عليها».

الشاب: «لقد بالغتَ كثيرًا، أتظنّ أنني لم أُشكِّل سوى هذه الفكرة؟»

الشيخ: «من تلقاء نفسك؟ لا، فأنتّ لم تشكِّل حتى هذه الفكرة، بل آليّتك العقلية قامت بذلك تلقائيًا وفي الحال، حتى من دون تفكير أو حاجة إلى التفكير في ذلك».

الشاب: «لنفترض أنني فكّرتُ؟ ماذا إذًا؟»

الشيخ: «تقصد لنفترض أنّك حاولت التفكير؟»

الشاب: «(بعد ربع ساعة) لقد فكّرت».

الشيخ: «أتعني أنك حاولتَ تغيير فكرتك على سبيل التجربة؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «وهل نجحت؟»

الشاب: «لا، لم يتغيَّر شيء، يبدو أنّه من المستحيل تغييرها».

الشيخ: «متأسّفٌ لذلك، ها أنتَ ترى بنفسك أنَّ عقلك محْضَ آلة لا غير، ليس بوسْعك السيطرة عليها، ولا حتى هي بمقدورها ذلك، فهي تعمل بتأثير مؤثِّرات خارجية فقط والتي هي نظام صانعها، ونظام جميع الآلات».

الشاب: «هل يستحيل تغيير إحدى هذه الأفكار التلقائية؟»

الشيخ: «لا يمكنك فِعْلُ هذا بمفردك، لكن المؤثرات الخارجية يمكنها ذلك»

الشاب: «فقط بالمؤثرات الخارجية؟»

الشيخ: «نعم الخارجية فقط».

الشاب: «إنَّ هذا الرأي واهٍ، واهٍ بشكل مضحك».

الشيخ: «ما الذي دفعكَ إلى التفكير في ذلك؟»

الشاب: «بكلّ بساطة لم يدفعني شيء، بل أعلم ذلك. لنفترض أني عزمتُ على اتباع خطة التفكير والدراسة والاطلاع، ونويتُ تغيير تلك الفكرة، ولنفترض أيضًا أني نجحتُ في ذلك؛ سيكون ذلك بجهدي الشخصي وليس بفِعْل مؤثر خارجي، أي أنا من ابتكر الخطة».

الشيخ: «ليس لك أي دورٍ في ذلك، بل انبثقت تلك الفكرة من حديثك معي، ولولاه لمَا خطر في بالكَ شيء. حاصل الحديث أنَّ الإنسان لا يُنتج شيئًا من تلقاء نفسه بل المؤثرات الخارجية هي التي تُشكِّل أفكاره ودوافعه».

الشاب: «إنّه بلا شك أمرٌ مثيرٌ للجدل، لكن الإنسان الأوّل كانت أفكاره أصلية؛ إذ لم يكن هناك مَن يسبقه إليها ليستوحي منه».

الشيخ: «كلامك غير صحيح، فأفكار ذاك الإنسان نشأت من المؤثرات الخارجية. أنتَ تخشى الموت، وهذا الخوف لم تنتجه أنتَ، بل من مؤثر خارجي، سواء تلقّيته عن طريق الأحاديث أو التعليم. أما الإنسان الأوّل فما كان يخشى الموت، ولا غيره».

الشاب: «بل كان يخشاه».

الشيخ: «متى؟ عندما خُلِق؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «إذًا، متى؟»

الشاب: «عندما هُدِّد بالموت».

الشيخ: «إذًا، خوفه ناتج عن مؤثر خارجي، لربما كانت عقليته جيدة، لكنها ليست ذات نفع إنْ لم يملأها مؤثر خارجي. إنّ عقل الإنسان تجميعي بحيث لا يمكنه ابتداع شيء بالمطلق، ما يمكنه القيام به هو استخدامه المواد التي اكتسبها من المؤثرات الخارجية فحسب، إذًا إنّ عقله محْض آلة تعمل تلقائيًا،

وليس بِفِعْل العزيمة، فليس له على نفسه سلطانٌ، ولا لصاحبه سلطانٌ عليه».

الشاب: «بغض النظر عن الإنسان القديم، لكن ذلك لا يشمل بالتأكيد إبداعات شكسبير».

الشيخ: «أعتقدُ أنّك تقصد مستعارات شكسبير، فهو لم يبتكر شيئًا من تلقاء نفسه، بل كانت ملاحظاته دقيقة، ورسمه مُتقَن عندما صوّر أشخاصًا خلقهم الله، أما هو فلم يخلق شيئًا. لنفترض أنه حاول أن يخلق، شكسبير لم يتمكّن من خلق شيء البتة، إنما لم يكن سوى آلة، والأخيرة لا تَخلق»

الشاب: «إذًا، أين يكمن تميّزه؟»

الشيخ: «يكمن في أنه لم يكن آلة خياطة مثلنا، بل كان أشبه بـمنسج (غوبلين) ([3])، وصلتْ إليه الخيطان والألوان من مؤثرات واقتراحات وخبرات خارجية (مطالعة ومتابعة المسرحيات وتمثيلها واستعارة الأفكار وغيرها)، جميع ما سبق أسْهَم في تشكيل تصاميم في عقله، وأدار عجلة آلته المعقدة والبارعة والتي أنتجت تلقائيًا ذلك النسيج المُبهِر المُصوَّر والذي لا يزال يُثير ذهول العالم بأسره. لو أنّ شكسبير وُلِد وترعرع فوق صخرة نائية في عَرْض المحيط، لمَا وجد ذكاؤه الحاد مواد خارجية توظّفه، ولمَا كان بمقدوره ابتكار أي مادة؛ وما كان ليَجد مؤثرات خارجية من تعاليم وآراء ونماذج وعوامل مُلهِمة ذات قيمة، فلن يكون باستطاعته أن يبتكر أي مؤثرات، وهذا دليل على أنّ شكسبير ما كان لينتج شيئًا.

ربما لو أنه عاش في تركيا لأَنتج شيئًا يُذكَر، يصل إلى أعلى حدّ من المؤثرات والارتباطات والنشأة التركية.

ولو عاش في فرنسا ربما لأَنتج شيئًا أفضل، يصل إلى الحد الأعلى من المؤثرات والنشأة الفرنسية. أما في إنجلترا لكان ارتقى إلى أعلى حدٍّ من خلال الخدمات الخارجية التي تقدّمها المُثُل العُليا والمؤثرات والنشأة. أما أنا وأنتَ فلسنا سوى آلات خياطة، يتوجّب علينا أن نُدير محركاتنا، ونبذل قصارى جهدنا، دون أن نُعير بالاً على الإطلاق لأي غبيٍّ يهزأ بأننا لسنا من مناسج غوبلين».

الشاب: «خلاصة كلامك، لسنا سوى آلات! وبأن الآلات قد لا تتفاخر بآلية عملها، ولا تطالب بمكافأة شخصية ولا بإطراء أو مديح لقيامها بذلك، إنه مبدأ مُخزٍ».

الشيخ: «إنه ليس بمبدأ، بل حقيقة فحسب».

الشاب: «أفترض في هذه الحالة أنَّ قيمة الشجاع لا تفوق قيمة الجبان؟»

الشيخ: «هل تعني القيمة الشخصية؟ لا؛ فالشجاع لا يخلق شجاعته، ولا يحق له أن يشعر بالمفخرة الشخصية لامتلاكه شجاعته، بل يولَد مالكًا لها. فلو فرضنا أنَّ طفلاً وُلِد مالكًا لثروة تُقدَّر بألف مليون دولار، فأين تكمن القيمة الشخصية في ذلك؟ وإنْ فرضنا أنه وُلِد لا يملك شيئًا، فأين تكمن النقيصة الشخصية في ذلك؟ فالأول يكون محلَّ تودّد من قِبَل المتملّقين، بينما يُهمَل الآخر ويصير موضع تحقير، فما العِبرة من ذلك كله؟»

الشاب: «لكن قد يحدث أحيانًا أنْ يحاول الإنسان الجبان قَهْر جُبنه فيصبح شجاعًا، ما رأيك في هذا الكلام؟»

الشيخ: «إنّ هذا يبيّن تفوُّق أثَر التوجيه في اتجاه سليم على التوجيه في اتجاه خاطئ. فالتوجيه والمؤثرات والتربية التي تحذو منحىً سليمًا ينجم عنها نتائج لا يمكن تقدير قيمتها، وتوجيه قبول المرء الذاتي يكون برفع شأن مُثُله العُليا»

الشاب: «بالكلام عن القيمة الشخصية، ماذا عن القيمة الشخصية لخطّة الجبان المنتصر وإنجازه بقهر جُبْنه؟»

الشيخ: «ليس هناك شيء من هذا القبيل؛ إذ صار في نظر الناس إنسانًا أصبح أكثر كفاءة مما كان عليه، لكن في الحقيقة هذا التحوّل الذي طرأ عليه ليس من إنجازه، والقيمة ليست شخصية».

الشاب: «إذًا، إنجاز مَن؟»

الشيخ: «تكوينه، والمؤثرات التي أتتْ من الخارج وكان لها الدور في تشكيل هذا التكوين».

الشاب: «تكوينه؟»

الشيخ: «أجل، في بادئ الأمر هو لم يكن جبانًا بالمُطلَق، والإثبات أنّ المؤثرات الخارجية وجدتْ الدعامة المناسبة للتشكيل، فلربما ما كان يخشى التصدي لبقرة، على الرغم من أنه قد يخشى ثورًا، ولربما ما كان يخاف امرأة، لكن يخاف رجلاً، هذا يُشير إلى أنّ هناك ما يستند التشكيل عليه. كانت هناك بذرة، وانعدام النبات مقترنٌ بانعدام البذرة، إذًا هل هو مَن شكَّل هذه البذرة بنفسه، أم أنها وُلِدت معه؟ ليس هناك من داعٍ للشعور بالتقدير إنْ كانت البذرة موجودة بالفطرة».

الشاب: «بأية حال، إنَّ مجرّد فكرة زرْع وإنماء البذرة والتصميم على هذا الإنماء، لَهوَ أمرٌ جديرٌ بالتقدير، ويكون بذلك هو صاحب الفضل».

الشيخ: «لكنه لم يفعل شيئًا من هذا القبيل، ففكرة الإنماء تكوّنت لديه نتيجة تجمُّع الدوافع الإيجابية والسلبية القادمة من الخارج. فلو قضى الجبان حياته في مجتمع من الجبناء، ولو لم يطَّلع على مآثر الشجعان، ولم يسمع كيف أثنى الناس على الأبطال، ولا كيف عبّروا عن حسدهم على ما قاموا به من بطولات، لكان جاهلاً بفكرة الشجاعة كجهل آدم بفكرة الحياء، ولكان من المستحيل أنْ يصمِّم على أنْ يصبح شجاعًا. فلم يكن بمقدوره ابتداع الفكرة، إذ كان لا بُدّ لها من أنْ تأتيه من الخارج. وعليه حينما سمع تبجيل الناس للشجاعة وتحقيرهم للجُبن، أيقظ ذلك فيه التصميم على قهر جُبْنه، إذ كان يشعر بالعار من نفسه، وربما حبيبته قالت له بتكبّر: «أخبَروني بأنك جبان!»، فلم يكن في هذه الحال مَن كشف عن عيبه، بل هي مَن فعلت ذلك، إذًا ليس من حقه التباهي بقدره، فهو ليس ملكه».

الشاب: «لكن هو مَن تكفّل برعاية النبات بعد أنْ روَتْ هي البذرة».

الشيخ: «لا، المؤثرات الخارجية هي مَن تكفّلت برعاية النبات؛ فعند إصدار الأوامر، خرج مرتجفًا إلى الميدان مع جنود آخرين، ولم يكن وحده في وَضَح النهار وفي الظلام. تغلّب عليه أثر المؤثر الخارجي وهو القدوة، فاستمدّ الشجاعة من شجاعة رِفاقه في الميدان؛ إذ كان خائفًا وأراد الفرار، لكنه لم يجرؤ على فِعْل ذلك، لأنه كان يخشى الهروب بينما يراقبه جميع هؤلاء الجنود. ألا ترى كيف أحرز تقدُّمًا، وكيف سَمَا الخوف الأخلاقي من العار فوق الخوف الجسديّ من الخطر. وعند حلول نهاية الهجوم، تكون قد لقّنته التجربة درسًا (ليس كل مَن ينخرط في المعركة يتأذى)، وهذا مؤثر خارجي آخر يعود عليه بالنفع، ويكون قد عَرف أيضًا لذّة المدح لشجاعته والاستحسان المسفوح بالعَبَرات المكبوتة عند سَير الفرقة المنهَكة بفِعْل الحرب مارّةً بالحشود التي تبجِّلها، حاملين الأعلام المرفرفة والطبول، حينها وبعد كل هذا سوف تدبّ فيه الثقة بشجاعته كأي جندي مخضرم في الجيش، ولن يكون هناك ولو أثَرٌ ضئيل بالميزة الشخصية بعمله، بل قد أتاه ذلك من الخارج. إنّ صليب فيكتوريا أنتج أبطالاً أكثر مما...

الشاب: «أرجو أنْ تشرح لي: ما المغزى في أنْ يصير شجاعًا إنْ لم يكتسب سمعة يفتخر بها؟»

الشيخ: «لقد أجبتَ عن سؤالك بنفسك، فلقد أفسحتَ المجال للتحدّث عن تفصيل مهم في تكوين الإنسان لم نتطرّق إليه بعد».

الشاب: «وما هذا التفصيل؟»

الشيخ: «إنه الدافع الذي يدفعه إلى القيام بالأمور، وهو الدافع الوحيد الذي يحرّك أي شخص ليقوم بأي شيء».

الشاب: «الدافع الوحيد! ألا يوجد دوافع أخرى؟»

الشيخ: «إنّه كلّ شيء، لا يوجد غيره».

الشاب: «إنّه بلا شكّ اعتقاد غريب إلى حدٍّ ما، وما هذا الدافع الوحيد الذي يدفع الإنسان للقيام بالأعمال؟»

الشيخ: «هو الدافع لإرضاء نفسه وضرورة إرضائها والظفر باستحسانها».

الشاب: «حقًا، هذا كلام غير منطقي».

الشيخ: «ولمَ لا؟»

الشاب: «لأنه سيصبح دائم البحث عن راحته ومنفعته، أما الإنسان الغيريّ فغالبًا ما يقوم بعملٍ لمجرّد أنه يصبُّ في صالح غيره بينما يُلحق الضرر بنفسه».

الشيخ: «هذا غير صحيح، لأن أعماله يجب أن تعود بالنفع عليه أولاً، وإلا لن يستطيع القيام بها، فقد يظن أنه يؤديها لصالح غيره فحسب، لكن في الواقع الأمر ليس كذلك، بل إنه يُرضي نفسه أولاً، إذ يجب أنْ تحتلّ مصلحة الغير دائمًا الدور الثانوي».

الشاب: «يا لها من فكرة خيالية! وماذا عن التضحية بالنفس؟ أرجو أنْ تشرح لي».

الشيخ: «ما التضحية بالنفس؟»

الشاب: «هي عمل الخير لغيرك دون أن ينوبك شيء لصالحك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

الدافع الوحيد للإنسان - ضمان إرضاء ذاته

الشيخ: «برأيك هل هناك من أمثلة عن التضحية بالنفس؟»

الشاب: «أمثلة؟ الملايين منها!».

الشيخ: «هل تسرّعتَ في حُكمك عليها؟ وهل درستها بحكمة؟»

الشاب: «ليس هناك من داعٍ لدراستها، فالأفعال نفسها تكشف عن الدافع الأساسي الكامن خلفها».

الشيخ: «هات أمثلة».

الشاب: «حسنًا، على سبيل المثال، تلك القضية التي يعالجها هذا الكتاب. يعيش الرجل على بعد ثلاثة أميال أعلى المدينة. وذات منتصف ليل كان البرد قارسًا والثلج يهطل بغزارة، هو يوشك أن يركب عربة، وإذ بعجوز شيباء رثّة الملابس، يعكس مظهرها صورة مؤلمة عن البؤس، تمدّ يدها الهزيلة مستجديةً إنقاذها من الجوع والموت، لم يجد الرجل في جيبه سوى ربع دولار، لكنه لم يتردد في إعطائها إياه وشقَّ طريقه باتجاه المنزل خلال العاصفة. هذا التصرف النبيل والرائع لا تشوبه شائبة أو حتى إيحاء بالأنانية».

الشيخ: «وما الذي يدفعك إلى التفكير في ذلك؟»

الشاب: «بالله عليك وبم قد أفكر؟ هل برأيك هناك جانب آخر لرؤية الموضوع؟»

الشيخ: «هل بإمكانك أن تحلّ محلّ الرجل وتخبرني عن شعوره وتفكيره؟»

الشاب: «ببساطة سأخبرك: لقد انفطر قلبه بشدة عند رؤيته ذلك الوجه العجوز المعذَّب، فلم يحتمل. كان بمقدوره تحمّل السير في العاصفة لثلاثة أميال، بيْد أنه ما كان ليحتمل عذاب ضميره إنْ أدار ظهره وانصرف تاركًا ذلك المخلوق العجوز الفقير فريسة الموت. حينها سيُصاب بالأرق جرّاء التفكير في ذلك».

الشيخ: «كيف كانت حالته النفسية عند عودته إلى منزله؟»

الشاب: «انتابته حالة فرح لا يشعر بها سوى من يضحي بنفسه، كان قلبه يرقص وكأنه غير مكترث بالعاصفة».

الشيخ: «وهل كان يشعر بأنه على ما يرام؟»

الشاب: «لا يمكننا الشكّ في ذلك».

الشيخ: حسنًا. فلنجمع التفاصيل لنرى كم نال لقاء ربع الدولار. ودَعنا نبحث عن السبب الحقيقي الذي دفعه إلى إعطائها المال، فمن جهة عجْزه عن تحمُّل الأسى الذي يوحي به الوجه العجوز البائس، وفي هذه الحالة كان تفكيره منصبٌّ على مداواة ألمه، فلو أنّه لم يُغث المرأة العجوز لكان سيشعر بتأنيب الضمير طوال طريق عودته إلى منزله، إذًا هو يفكر في ألمه مجددًا، وتبعًا لذلك لا بدّ أن يشتري سكيْنة باله، ولو أنه لم يُحسِن إليها لأقَضَّ الأمر مضجعه؛ لذلك لا بدّ أن يشتري قسطًا من النوم، كما ترى، إنّه لا يزال يفكر في نفسه. إذًا في المحصلة هو اشترى تفريجه من الألم الذي اعتصر قلبه، كما اشترى إعتاقه من تأنيب الضمير، واشترى نومًا هنيئًا، وعليه الفضل يعود في ذلك كله إلى ربع الدولار (خمسة وعشرين سنتًا)! لقد كان قلبه يرقص جذلاً في طريق عودته، بل كان يغني- وهذه مصلحة إضافية عمّا ذكرته سابقًا! إنّ الدافع الأولي الذي حذا بالرجل إلى الإحسان إلى المرأة العجوز كان إرضاء نفسه؛ أما الدافع الثانوي فكان تفريج معاناتها. باعتقادك هل تصرفات الإنسان ناجمةٌ عن دافع ثابت وجوهري، أم عن دوافع عدة؟»

الشاب: «ناجمةٌ عن دوافعَ عدّةٍ طبعًا، فبعضها نبيلٌ وسامٍ وبعضها عكس ذلك، ما رأيك؟»

الشيخ: «في هذه الحالة ليس هناك سوى قانون واحد ومصدر واحد لذلك».

الشاب: «هل ينجم أنبل الدوافع وأحقرها عن مصدر واحد؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: «هلاّ تفسّر لي هذا القانون؟»

الشيخ: «حسنًا، هذا هو القانون، فضعه في حسبانك دائمًا؛ من المهد إلى اللحد لا يقوم الإنسان بأي عملٍ إلا ويكون دافعه الأولي والوحيد هو أن يضمن راحة باله وطمأنينة نفسه».

الشاب: «بحق! أفهم من كلامك أنه لا يقوم بأي عمل لصالح راحة الآخرين النفسية والجسدية؟»

الشيخ: «لا، إلا تبعًا لشروط جليّة، وهي أن يصبّ العمل في صالحه بضمان راحته النفسية قبل كل شيء، وإلاّ لن يقوم به».

الشاب: «لَمِن السهل دحض هذا القانون».

الشيخ: «هات مثالاً».

الشاب: «خذْ مثالاً تلك العاطفة النبيلة المتمثِّلة بحبّ الوطن، فالرجل المحبّ للسلام والمتخوِّف من الألم، يغادر منزله الآمن وعائلته الباكية لرحيله، ليخرج ببسالة معرّضًا نفسه للجوع والبرد والجروح والموت، هل يُنشد راحته النفسية في هذا الموقف؟»

الشيخ: «هل هو محبّ للسلام ومتخوِّف من الألم؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «إذًا ربما هناك أمرٌ يفوق حبه للسلام، وهو أن ينال استحسان جيرانه وأهله، ولعلّ هناك أمرًا يفوق خوفه من الألم، وهو استهجان أهله وجيرانه. فإنْ كان يتأثر بالعار سيلتحق بالمعركة، وذلك ليس نابعًا من اطمئنانه على نفسه كليًا في الميدان، بل لأنّها ستكون مطمئنةً أكثر من بقائه في منزله؛ سيواظب القيام بالأعمال التي تبعث فيه طمأنينة النفس القصوى، لأن هذا هو القانون الوحيد الذي يُسيِّر حياته. يغادر عائلته الباكية لرحيله، وهو متأسف لتركها بهذه الحالة، لكنه غير متأسف بما يكفي ليضحي بطمأنينته في سبيل راحتهم».

الشاب: «وهل تعتقد حقًا أنَّ رأي الناس باستطاعته أنْ يدفع برجل مسالم وجبان إلى أن...»

الشيخ: «يذهب إلى الحرب؟ أجل، يمكن لرأي الناس أن يدفع ببعض الناس إلى فِعْل أي شيء».

الشاب: «أي شيء؟»

الشيخ: «أجل، أي شيء».

الشاب: «لا أعتقد ذلك، أيُعقل أن يدفع رأي الناس بإنسانٍ مبدئي لفِعْل أمرٍ غير لائق؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: « أيُعقل أن يدفع رأي الناس بإنسانٍ رحيم إلى ارتكاب عملٍ وحشي؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: «اضرب لي مثالاً».

الشيخ: «كان ألكسندر هاملتون رجلاً مبدئيًا، ويعدّ المبارزة عملاً فاسدًا ومنافيًا لتعاليم الدين، لكنه تبارز نزولاً عند رأي الناس. كما أنّه يحبّ عائلته حُبًّا جَمًّا، بيْد أنه وليحظى باستحسان الناس فارَقَها غدرًا وخاطر بحياته تاركًا أسرته من

بعده فريسة الأسى مدى الحياة، وكل ذلك كي يقف وقفة عزّ مع عالَمٍ أخرق. فوفقًا للمعايير السائدة بين الناس آنذاك لم يكن بمقدوره أنْ ينعَم بالطمأنينة وقد التصقت به وصمة عارٍ لرفضه المبارزة. فكل من تعاليم الدين وحبّه الجمّ لعائلته وطيبة قلبه ومبادئه السامية، جميعها يذهب أدراج الريح عندما يتعلّق الأمر بطمأنينة باله. إنَّ الإنسان مستعدٌّ لفعل أي شيء مهما كان ليضمن راحة باله، فلا يمكن إجباره أو تحريضه على فعل أي عملٍ لا يهدف إلى راحته. فعَمَلُ هاملتون يخضع إلى رغبةٍ فطريةٍ في إرضاء نفسه، كما كلّ أعماله في الحياة وأعمال البشر أجمعين. هل ترى أين يكمن لبّ الموضوع؟ لا يمكن للمرء أنْ يطمئن إلا بإرضاء نفسه، فهو بذلك سيضمن أكبر قدْرٍ ممكن من هذه الراحة بأي ثمنٍ وبأية تضحية».

الشاب: «لكنك قلتَ منذ قليل أنَّ هاملتون بارَزَ بقصد استحسان الناس».

الشيخ: «صحيح. فلو أنه رفض المشاركة في المبارزة لَحَظِي باستحسان عائلته وقدْرٍ كبير من رضا نفسه، لكن قيمة استحسان الناس في نظره كانت تفوق أي استحسانٍ آخر في الأرض أو في السماء؛ فضمان استحسانهم يمدّه بطمأنينة البال القصوى، وبرضا النفس الأقصى؛ وعليه كان مستعدًا للتضحية بكل القيم الأخرى ليحظى بهذه الطمأنينة وهذا الرضا».

الشاب: «لكن هناك بعض الأرواح النبيلة قد رفضت المشاركة في المبارزات وتحدّتْ احتقار الناس ببسالة».

الشيخ: «لقد تصرفوا بما يتوافق مع تكوينهم، فهم يفضّلون مبادئ عائلاتهم واستحسانها على استحسان الناس، فاتخذوا الشيء الذي يفضّلونه إلى حد كبير وأهمَلوا سواه، أي أنهم اتخذوا الشيء الذي يمنحهم أكبر قدْر من الرضا والاستحسان الشخصي، ولطالما سعى المرء إلى ذلك. لا يمكن لرأي الناس أنْ يفرض على أشخاص من هذا النمط أنْ يلتحقوا بالمعارك، فإنْ ذهبوا يكون ذلك ناجمًا عن أسبابٍ أخرى، أسباب تتعلّق بإرضاء النفس».

الشاب: «أهي دائمًا أسبابٌ تتعلّق بإرضاء النفس؟»

الشيخ: «ليس هناك سواها».

الشاب: «حين يضحّي رجل بحياته ليُنقذ طفلاً صغيرًا من بناءٍ يحترق، ماذا تدعو ذلك؟»

الشيخ: «حين يفعل ذلك، فذلك يكون نابعًا عن قانون تكوينه؛ إذ إنّه لا يحتمل رؤية طفلٍ مُعرّضٍ للخطر (باستطاعة رجلٍ ذي تكوين آخر الاحتمال)، وعلى ذلك يحاول إنقاذ الطفل فيفقد حياته، ولكنه يكون قد حظيَ بالرضا عن نفسه في آخر لحظة له».

الشاب: «إذًا ماذا تسمي الحب والكراهية والإحسان والثأر والإنسانية والشهامة والغفران؟»

الشيخ: «إنها نتائج مختلفة لدافعٍ واحد مُسيطِر وهو ضرورة ضمان رضا المرء عن نفسه. إنّها أشبه بشخص يرتدي ملابس مختلفة ومحكوم بطبائع متباينة، لكن أيًّا كانت طريقة تَخفِّيه فالشخص يبقى نفسه بلا تغيير إلاّ إذا كان الدافع المُسيطِر عليه -وليس هناك سواه- هو ضرورة ضمان رضاه عن نفسه، فإنْ توقّف هذا الدافع، مات الإنسان».

الشاب: «هذا ضربٌ من الحماقة. فالحبّ.... ».

الشيخ: «الحبّ هو ذلك الدافع وذلك القانون بصورته التي لا تقبل المساومة أبدًا ولا تسمح لشيء بأن يقف في وجه حبّه لمحبوبه، وليس ذلك في سبيل المحبوب، بل في سبيل المُحبّ قبل كل شيء، فسعادته مرتبطة بسعادة المحبوب، وهذه هي غايته من الحب وهو غافلٌ عن ذلك»

الشاب: «أعتقد أنك لا تستثني من كلامك عاطفة الأمومة النبيلة والسامية؟»

الشيخ: «لا، فهذه العاطفة خاضعةٌ كليًا لهذا القانون، فالأم قد تتعرّى لتكسو طفلها؛ وقد تحرم نفسها الطعام لتُطعمه؛ وقد تُعرَّض للعذاب لتحميه من الألم؛ بل وتموت ليعيش، إنها تتلذذ بتضحياتها، وتسعى للشعور بهذه اللذة -هذا الرضا عن النفس- هذه الطمأنينة والسلام والاستحسان.. قد تضحي لأجل طفلكَ أنت إنْ كانت ستشعر باللذة ذاتها».

الشاب: «إنَّ فلسفتك ملعونة».

الشيخ: «إنها ليست بفلسفة، بل حقيقة».

الشاب: «لا بدَّ أن تعترف أنَّ هناك بعض الأعمال التي...»

الشيخ: «لا، لا توجد أعمال مهما كانت كبيرة أم صغيرة، جيدة أم دنيئة، لا تنشأ سوى عن دافع وحيد وهو ضرورة إراحة النفس وإرضائها».

الشاب: «وأولئك دُعاة الإنسانية في العالَم...»

الشيخ: «إني أُجلِّهم وأرفع لهم القبعة بحُكم العادة والتدريب؛ ولكنهم ما كانوا ليعرفوا الراحة أو السعادة أو الرضا الذاتي إذا لم يعملوا وينفقوا من أجل التُعساء، فرؤية هؤلاء التعساء سعداء يُسعِدهم؛ وعليه يشترون بالمال والجهد ما يسعون لأجله ألا وهو السعادة والرضا الذاتي. ولمَ لا يفعل البخلاء الأمر ذاته؟ لأن بإمكانهم الحصول على أضعافٍ مضاعفة من السعادة بمجرّد امتناعهم عن فعله، وليس هناك من سببٍ آخر، فهم يتبعون قانون تكوينهم».

الشاب: «وما رأيك بخصوص القيام بالواجب في سبيل الواجب؟»

الشيخ: «هذا غير معقول، فالواجبات لا تؤدّى في سبيل الواجب، بل تجاهلهم هو ما يجعل الإنسان قلقًا، فهو لا يؤدي سوى واجب واحد وهو إرضاء نفسه أي أنْ تتقبَّل نفسه ذاتها. فإنْ كان بمقدوره تأدية هذا الواجب الوحيد بشكلٍ مُرضٍ بمجرَّد مساعدة جاره فسيؤديه، وإن كان بمقدوره تأديته بشكلٍ مُرضٍ بمجرَّد خداع جاره فسيؤديه أيضًا؛ فهو دائم البحث عن الصدارة أولاً، أمّا تأثيرات ذلك على الآخرين فهذا أمرٌ ثانوي. إنّ المرء يتظاهر بأنه يضحي بنفسه، لكنه في الحقيقة لا يوجد شيء من هذا القبيل ولن يوجد. بصراحة، غالبًا ما يُظنّ أنه يضحي بنفسه في سبيل الآخرين فحسب، لكنه مخدوع بذلك لأن دافعه الكامن هو إرضاء مطلب طبيعته وتربيته، وبهذه الحال تنال نفسه السلام».

الشاب: «يبدو لي أنَّ جميع البشر الصالحين منهم والفاسدين يكرّسون حياتهم لإرضاء ضمائرهم».

الشيخ: «إنها خيرُ تسمية لذلك، فضمير الإنسان ذلك السلطان المستقل والملك المُهيمِن كليًا في داخله هو المسيطر عليه. وكما تتنوع البشر تتنوع ضمائرهم، بإمكانك إرضاء ضمير سفّاح بطريقة، وترضي ضمير داعي خيرٍ بطريقة أخرى، وضمير بخيلٍ بطريقة، وضمير لصٍّ بطريقة. وإذا تركنا عنصر التدريب جانبًا يفقد الضمير قيمته كموجِّه وحافز للإنسان في أي منحى أخلاقي محدد. كان لديّ صاحبٌ طيب القلب من ولاية كنتاكي، يفتقد الرضا عن نفسه. وبعبارة أدقّ، كان ضميره يؤنبه لأنه تجاهل قتلَ رجلٍ لم يسبق له رؤيته، فهذا الغريب سبق وأن قتلَ صديقًا لصاحبي في أثناء مبارزة، فأصبح من واجب صاحبي قتل الغريب انتقامًا لصديقه كما هي العادات في كنتاكي، لكنه لم يقم بذلك واستمر في تفاديه لهذه الواجب والتملّص منه، بينما ظلّ ضميره الصارم يعذبه، وأخيرًا لينعم براحة البال والرضا عن نفسه؛ طارد الغريب حتى قتله. إنّ تصرفه مثالٌ عظيمٌ عن التضحية بالنفس (بمعناها المتعارف عليه)؛ إذ إنه لم يودّ قتله وما كان سيفعل ذلك مطلقًا لو أمكنه أن ينال رضا نفسه وباله المرتاح بثمنٍ أقل، لكننا جُبِلنا على دفع الثمن مهما كان كَرْمى للإرضاء حتى لو كان هذا الثمن حياة شخص آخر»

الشاب: «لقد أخبرتني منذ قليل عن الضمائر المدرّبة، أتقصد بقولك أننا لم نولَد بضمائر مؤهّلة لترشدنا نحو الطريق القويم؟» الشيخ: «لو أنّ الأمر كذلك لميّز الأطفال والرعاع بين الخطأ والصواب وما كانوا بحاجة إلى تعليمهم ذلك».

الشاب: «وهل يمكن تدريب الضمائر؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: «بالطبع التدريب يكون عن طريق الوالدَين والمعلِّمين ورجال الدين والكتب».

الشيخ: «أجل، إنهم يؤدون واجباتهم على حسب قدرتهم».

الشاب: «وما تبقّى يقوم به ...»

الشيخ: «هناك ملايين المؤثرات غير الملحوظة، سواء كانت صالحة أم فاسدة، فهي مؤثرات تعمل بلا توقّف خلال كل لحظة يقظة من حياة الإنسان، من المهد إلى اللحد».

الشاب: «هل أحصيت كل هذه المؤثرات؟»

الشيخ: «نعم، الكثير منها»

الشاب: «هل يمكنكَ أن تُطلِعني على النتيجة؟»

الشيخ: «نعم، لكن في وقتٍ آخر، فقد تأخذ من وقتنا ساعة».

الشاب: «هل بالإمكان تدريب الضمير على تجنب الشر وتفضيل الخير؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: «إذًا هو يفضّل الخير بدافع إرضاء النفس فحسب؟»

الشيخ: «صحيح، فلا يمكن تدريبه على أن يعمل شيئًا بأي دافعٍ آخر، فحينها سيكون التدريب مستحيلاً».

الشاب: «لا بدّ أنَّ تاريخ الإنسان ضمّنَ موقفًا يشهد بتضحية النفس تضحيةً حقيقية خالصة».

الشيخ: «ما زلتَ في مُقتبل عمركَ والحياة أمامك طويلة، فاغتنمها في البحث عن هذا الموقف».

الشاب: «حسب رؤيتي للموضوع أنه حين يرى رجلٌ شخصًا آخر يُصارِع الأمواج فيَرمي بنفسه في الماء واضعًا حياته على كفّه ليُنقِذ ...»

الشيخ: «على رِسلِك، صِف لي الرجل والشخص الآخر، ثم وضّح لي إن كان هناك من حشدٍ حاضر آنذاك، أو إنْ كانا وحدهما».

الشاب: «وما أهمية هذه الأمور كلها أمام هذا العمل العظيم؟» الشيخ: «إنها ذات أهمية كبيرة، هل نفترض أنهما كانا وحدهما سابقًا في مكانٍ منعزل، وفي منتصف الليل؟»

الشاب: «لكَ أن تختار ذلك».

الشيخ: «وهل نفترض أنّ الشخص الآخر هو ابنة ذلك الرجل؟»

الشاب: «حسنًا. لا، لا، بل لنفترض أنّه شخصٌ آخر»

الشيخ: «إذًا، هل نفترض أنه شخصٌ مخمور قذر؟»

الشاب: «فهمتُ الآن، وفقًا للظروف تتغيّر القضايا، أفترضُ أنه لو كانا وحدهما بلا متفرّجين لما فعل الرجل هذا الفعل النبيل».

الشيخ: «لكن قد يوجد رجلٌ في مكانٍ ما يقوم بذلك. فعلى سبيل المثال: أناسٌ مثل ذلك الرجل الذي لقي حتْفه وهو يحاول إنقاذ طفلٍ من الحريق، وذلك الرجل الذي أعطى تلك العجوز البائسة ما تبقى معه من خمسةٍ وعشرين سنتًا ثم شق طريقه إلى منزله في العاصفة، أناسٌ كهؤلاء يقومون بأعمالهم بلا متفرّجين. أتسأل لمَ؟ لأن رؤية شخصٍ يصارع الأمواج وعدم اكتراثهم به يفوق طاقة تحمّلهم ويُشعِرهم بالألم، فقد ينقذونه لهذا الاعتبار وليس لأي غاية أخرى. إنّهم بهذا العمل يطبّقون القانون الذي كنتُ أشدِّد عليه. يتحتّم عليك أن تضع في حُسبانك وتميّز على الدوام بين الأشخاص ذوي طاقة تحمّل الأشياء والأشخاص الذين لا يتحمّلون. إنّ ذلك يسلِّط الضوء بوضوح على عدد من حالات التضحية بالنفس».

الشاب: «ربّاه! إن هذا الشرح الوفير يدعو للاشمئزاز».

الشيخ: «أجل، وكل ما قلته هو الحقيقة».

الشاب: «لنأخذ مثالاً عن الصبي الطيب الذي يقوم بالأمور ضد رغبته لكي يُرضي والدته».

الشيخ: «إنَّ 70 % من الدافع الكامن من عمله هو إرضاء نفسه حينما يُرضي والدته. فلن يقوم الولد الطيب بالعمل إنْ كانت نسبة 70 % لإرضاء أمه فقط؛ إذْ لا بدّ له من أن يمتثل لذلك القانون الحديدي المقيِّد، والذي لا يمكن لأحدٍ أنْ يَسْلَمَ منه».

الشاب: «إذًا، لنضرب مثالاً آخر عن صبيّ فاسد...»

الشيخ: «لا داعي لتتحدث عنه فهو مضيعةٌ للوقت، والمسألة لا تكمن في تصرُّف الولد الفاسد، فهناك حتمًا دافعٌ كامنٌ وراء عمله وهو إرضاء نفسه، وإنْ استنتجْتَ غير ذلك فحُكْمًا أنّ الأمر قد اختلط عليك، وأنّه لم يقُم بالعمل».

الشاب: «لقد أثار الموضوعُ سُخْطي للغاية، فلقد أخبرتني منذ بُرهة بأنَّ ضمير الإنسان لم يولَدْ قادرًا على الحُكْم على التصرف والسلوك الأخلاقي، بل يكتسب ذلك بالتعليم والتدريب. وبعد كلامك الذي قلته للتو أظنُّ أنَّ الضمير قد يتبلّد لكنه لا يضلّ سعْيَه، فإنْ أبْقيتَه يَقِظًا...»

قصة قصيرة

الشيخ: «سأقصّ عليك قصة قصيرة».

في قديم الزمان حلّ كافرٌ ضيفًا في منزل أرملةٍ مسيحيةٍ، وكان ولدها الصغير مريضًا ويلفظ أنفاسه الأخيرة. كثيرًا ما كان الكافر يجلس قرب سرير الولد ويرفّه عنه بالأحاديث، واستغلّ هذه الفرص بدافع إرضاء رغبة مُلِحّة في طبيعته، تلك الرغبة التي تتملّكنا جميعًا في الارتقاء بظروف الناس بمجرد حثّهم على التفكير مثلنا. نجح الكافر في ذلك، ولكن الولد في سكرات الموت عاتبه قائلاً: «كنتُ مؤمنًا وسعيدًا بإيماني هذا، لكنك سلَبْتني إياه، كما سلَبْتَ مني راحتي. وبعد الآن لم يتبقَّ لي شيء أفتخر به، وسأموت بائسًا لأنّ الأمور التي حدّثتني عنها لا تنوب منابَ العقيدة التي فقدتُها».

كما عاتبتْ الأم الكافر بدورها قائلةً:

«لقد خسرتُ ابني للأبد، وقلبي ينفطر لذلك، كيف تجرّأتَ على فعل هذا الأمر المُريع؟ لم نُلحِق بك الأذى، بل على العكس لم تلقَ منّا سوى الإحسان، وكان منزلنا بمثابة بيتٍ لكَ، وكل ما نملكه كان تحت تصرّفك، أوَ هكذا يكون المُقابِل؟» شعر الكافر بالندامة جرّاء فِعْلته، وقال: «لقد شعرتُ بخطئي الآن، لكن غايتي كانت فِعْل الخير فحسب، فباعتقادي أنّه كان في ضلال، ورأيتُ أنّ من واجبي هو أن أرشده إلى الحقيقة».

فأجابته الأم:

«لقد أرشدته طوال حياته القصيرة إلى الحقيقة التي أؤمن بها، ولقد كنّا كلانا سعيدَين بعقيدتنا هذه. أما الآن فقد مات خاسرًا نفسه، وبتُّ أنا بائسةً من بعده؛ فلقد توارثنا عقيدتنا هذه عبر أجيالٍ متعاقبة من الأسلاف المؤمنين، بأي حقّ سمحتَ لنفسك أنتَ أو غيرك بأن تُخِلّ بهذه العقيدة؟ ألم تشعر بالعار؟ أين كان شرفك؟»

الشاب: «كان وغدًا ويستحق الموت!»

الشيخ: «لقد فكّر هو نفسه في هذا الأمر، وقال ذلك».

الشاب: «أرأيت أنَّ ضميره كان يَقِظًا؟»

الشيخ: «نعم، تقصد رضاه الذاتي هو الذي كان يَقِظًا، آلمه رؤية معاناة الأم، وشعر بالأسف لأنه قامَ بفعلةٍ كانت سببًا لألمه هذا، فلم يأبه بالأم عندما أساء توجيه ابنها لانغماسه آنذاك باللذة التي يكتسبها لإرضاء ما ادّعى أنه نداء الواجب».

الشاب: «سمّه ما شِئْت، فأنا أراها صحوة ضمير، فالضمير اليَقِظ لا يُقحِم نفسه في مثل تلك المتاعب مرة أخرى، وإنَّ علاجًا مثل هذا يكون مدى الحياة»

الشيخ: «أرجو المعذرة، فلم أنهِ القصة بعد؛ إذ إنّنا مخلوقاتٌ محكومةٌ بالمؤثرات الخارجية ولم نبتدع شيئًا في دواخلنا، فكلّما اتّخذنا منهجًا جديدًا في التفكير والعمل والعقيدة كان الدافع دائمًا مصدره الخارج. احتلّ الندم كيان الكافر حتى تلاشى معه نفوره من عقيدة الولد وتصالح معها بشيء من التسامح والعطف كَرْمى له ولوالدته، إلى أنْ ألفى نفسه يدرس العقيدة، ومنذ تلك اللحظة تسارع وتوطّد تقدمه في نزوعه الجديد، فأصبح رجلاً مؤمنًا، وغدا ندمه لسلبه إيمان الطفل المحتضر وخلاصه أشدَّ مرارةً من ذي قبل، إلى حدّ أنه كدّر حياته فلم يعُد يعرف الراحة ولا السَّكينة، ولا بدّ أن ينعم بهذَين الأمرَين فهكذا ينص قانون الطبيعة البشرية. وليس هناك من طريقة لينعم بهما سوى تكريس نفسه لإنقاذ الأرواح الهالكة، ما حدا به لأن يصبح مبشِّرًا. فعاش في بلدٍ وثنيٍّ عاجزًا ومريضًا، لكنّ أرملة من سكان البلد أوَتْه في منزلها المتواضع واعتنت به حتى تماثل للشفاء، ثم أصيب ابنها بالمرض بشكلٍ ميئوسٍ منه، فقدّم المبشّر الممتنّ لها يد المساعدة بأن يعتني بابنها، وكان تلك فرصته الأولى لإصلاحٍ جزءٍ من الضرر الذي ألحقه بذلك الولد المحتضِر عبر تقديمه مساعدة قيّمة لطفل هذه الأرملة، وذلك بزعزعته لإيمانه الأخرق بآلهة زائفين، ونجح في مسعاه، لكنّ الطفل المحتضر عاتبه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة قائلاً: «كنتُ مؤمنًا وسعيدًا بإيماني هذا، لكنك سلَبْتني إياه، كما سلَبْتَ مني راحتي. وبعد الآن لم يتبقَّ لي شيء أفتخر به، وسأموت بائسًا؛ لأن الأمور التي حدّثتني عنها لا تنوب منابَ العقيدة التي فقدتُها».

فعاتبت الأم المبشِّر بدورها قائلةً:

«لقد خسرتُ ابني للأبد، وقلبي ينفطر لذلك، كيف تجرّأتَ على فعل هذا الأمر المُريع؟ لم نُلحِق بك الأذى، بل على العكس لم تلقَ منا سوى الإحسان، وكان منزلنا بمثابة بيتٍ لكَ، وكل ما نملكه كان تحت تصرّفك، أهكذا يكون المُقابِل؟» فاعترى المبشّر شعورٌ بالندم الشديد لما فعَله، وقال: «لقد شعرتُ بخطئي الآن، لكن غايتي كانت فِعْل الخير فحسب، فباعتقادي أنه كان في ضلال، ورأيتُ أنّ من واجبي هو أن أرشده إلى الحقيقة».

فأجابته الأم:

«لقد أرشدته طوال حياته القصيرة إلى الحقيقة التي أؤمن بها، ولقد كنا كلانا سعيدَين بعقيدتنا هذه. أما الآن فقد مات خاسرًا نفسه، وبتُّ أنا بائسة من بعده؛ فلقد توارثنا عقيدتنا هذه عبر أجيالٍ متعاقبة من الأسلاف الوثنيين، بأي حقّ سمحتَ لنفسك أنتَ أو غيرك بأن تُخِلّ بهذه العقيدة؟ ألم تشعر بالعار؟ أين كان شرفك؟»

فكان إحساس المبشِّر بالندم والغدر الذي تملّكه كمرارة وعذاب إحساسه السابق مع الطفل الأول، وبذلك تكون قد انتهت القصة. أخبرني، ما رأيك؟»

الشاب: «إنّ ضمير الرجل أخرق! لأنه كان عاجزًا فلم يميز بين الخطأ والصواب».

الشيخ: «لا يؤسفني سماع ذلك منك، إنْ سلّمْتَ أنّ ضمير رجلٍ واحد لا يميّز بين الخطأ والصواب فهذا اعترافٌ منكَ أنَّ هناك ضمائر مماثلة له، وهذا الاعتراف المتفرّد يدحض المبدأ الذي ينفي أن يكون حُكْمُ الضمير خاطئًا، وفي الوقت ذاته أودّ منكَ أنْ تلاحظ أمرًا ما».

الشاب: «وما هو؟»

الشيخ: «هو أنّ عمل الرجل في كلتا الحالتَين لم يُشعِره سوى بالراحة النفسية والرضا واللذة في أثناء تأديته الواجب، وعندما أصابه الأسف بعد ذلك كان السبب أنّ عواقب عمله سبّبت له الألم، فتأسّف أنه كان مصدر ألمٍ للآخرين، لا لشيءٍ سوى أنّ ألمَهم آلمَه. لن يفطن ضميرنا للألم المنعكسِ على الآخرين حتى يُصيبنا، وإننا في كل الأحوال -من دون استثناء- لا نُعيْرُ بالاً لمعاناة الآخرين إلاّ إذا أصبحت مصدرًا لآلامنا. برأيي أنّ عددًا كبيرًا من الكفار ما كان لِيهتمّ بحال تلك الأم المسيحية المنكوبة، ألا تشاركني الرأي؟»

الشاب: «بلى، أظنّ أنّك تقصد بقولك إنه كافرٌ عادي».

الشيخ: «كما أنّ عددًا كبيرًا من المبشِّرين المتشدِّدين لواجبهم ما كان ليهتمَّ بحال تلك الأم الكافرة المنكوبة، كالمبشّرين اليسوعيين في كندا في أوائل العصور الفرنسية، انظر إلى الوقائع المقتبسة عن باركمان([4])».

الشاب: «لنفضّ الحديث، إلى أيِّ نتيجة توصّلنا حتى الآن؟»

الشيخ: «إلى هذه النتيجة؛ إننا -بني البشر- قد نسَبنا إلى أنفسنا عددًا من الصفات التي أطلقنا عليها أسماء زائفة كالحب والكراهية والإحسان والعطف والجشع والصّدَقة وغيرها، أيْ أننا أرفقنا بهذه الأسماء معاني زائفة، فجميعها تصبّ في صالح إرضاء النفس ولكنها مغلّفةٌ بالأسماء التي تُعمي بصيرتنا عن

الحقيقة. حتى أننا أدرجنا كلمةً غير صحيحةٍ في القاموس وهي (التضحية بالنفس)، لأن معناها غير موجود، والأسوأ من هذا كله أننا أغفلنا وسهَونا عن ذِكْر الدافع الوحيد الكامن وراء أيِّ عمل يقوم به الإنسان؛ وهو الحاجة المُلحَّة إلى ضمان رضاه عن نفسه في كلّ الظروف ومهما كان الثمن. ونحن نِتاج هذا الدافع، فهو بالنسبة إلينا كالأنفاس والقلب والدم، وحافزنا الوحيد الذي يدفعنا والسوط الذي يجلِدنا والمِهْماز والقوة الوحيدة التي تسيِّرنا، ومن دونها لكنّا تماثيلَ وجثثًا تعوزها الحياة؛ وما كان بإمكان أحد القيام بأيّ عمل أو حتى إحراز أي تقدُّم، فيصبح الكون هامدًا. إذًا، يتوجّب علينا أن نقف خاشعين عند ذِكْر هذه القوة الهائلة»

الشاب: «لم أقتنع».

الشيخ: «سوف تقتنع عندما تفكر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-3-

أمثلة بخصوص الموضوع

الشيخ: «هل فكَّرتَ في مذهب إرضاء الذات منذ أن بدأنا بالحديث؟» الشاب: «نعم».

الشيخ: «لقد قصدتُ توجيهك إلى هذا التفكير، أي أنّ مؤثرًا خارجيًا هو الذي وجَّهك إليه ولم يبتدعه عقلك. هلاّ وضعتَ ذلك في حُسبانك من دون أن تغفله؟» الشاب: «نعم، ولكن لمَ؟»

الشيخ: «لأنني أودّ في محادثاتنا القادمة أنْ أغرس في ذهنكَ أنَّه من غير الممكن بالنسبة إليّ وإليكَ وإلى أيّ بشريٍّ إنتاج فكرة في عقله، فقائلُ فكرةٍ لطالما كان مردِّدًا فكرة سابقة».

الشاب: «آه، ولكن ...»

الشيخ: «أجِّل ملاحظتك حتى يحين دورها في النقاش، ربما غدًا أو بعد غد مثلاً. أما الآن قُل لي هل تأمّلتَ في القاعدة القائلة أنّ أعمال الإنسان وليدة دافعه بإرضاء نفسه قبل كل شيء. وبما أنك بحثتَ، ماذا وجدتَ؟» الشاب: «لم يُحالفني حُسْن الحظّ، فقد تصفّحتُ أعمالاً كثيرة وجميلة سواء كانت قصص حبٍّ أم سيَر ذاتية ويتجلّى فيها روح التضحية بالنفس، ولكن...»

الشيخ: «في ظلّ بحثك وتحليلك تلاشت تلك التضحية بالنفس الجليّة، أليس كذلك؟ إنه أمرٌ طبيعي».

الشاب: «لكن في هذه القصة التي سأخبرك بها ما يدحض كلامك. في غابات آديروندك يعيش حطّابٌ متديِّنٌ ونبيل في كوخ خشبي إلى جانب عمله يعمل واعظًا. وفي أحد الأيام جاءه رجلٌ من أحد سكّان مدينة نيويورك ممن يعملون لمنفعة الأحياء الفقيرة، وهو رئيس قسم يختص بالتسويات في الجامعة. دبّت في نفس «هولم» الحطّاب الرغبة في تبديد مصالحه الدنيوية وتغيير نمط حياته بتكريسها لمساعدة الفقراء في إيست سايد، إن هذه التضحية بترك مكانه وذهابه إلى إيست سايد تمجيدًا للرب تغمره بالسعادة ويؤديها بكل سرور بالرغم من السخرية الدائمة التي يُعرّض لها وهو يوعظ جماعات من المحتاجين الغرباء شبه المتحضرين، وذلك لأنه يعاني من أجل المسيح

لقد شغلتَ رأسي بالشكوك إلى حدّ أنني كنتُ أتوقع على الدوام أن أجد دافعًا خفيًا ومُريبًا يكمن وراء كل ذلك، ولكني فشلتُ في مسعاي هذا لحسن الحظ؛

فقد عرف هذا الرجل واجبه، وكَرْمى لهذا الواجب؛ ضحّى بنفسه وحمل على عاتقه العبء الذي فرضه عليه هذا الواجب».

الشيخ: «هل هذا كلّ ما قرأت؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «دعنا الآن نقرأ ما بين السطور. فحين ظنّ أنه يضحي بنفسه (لم يكن ذلك تمجيدًا للرب في المقام الأول بل لإرضاء ذلك المسيطِر المستبِدّ والطَّلُوب في داخله قبل كل شيء)، هل ضحَّى في الوقت ذاته بأشخاصٍ آخرين؟»

الشاب: «ماذا تقصد؟»

الشيخ: «لقد تنازل عن عملٍ مُثمر، بينما لا يكسب من عمله الجديد سوى الغذاء والإقامة. هل كان يُعيْل أحدًا؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «بأي طريقة وإلى أي حدٍّ أثّرت فيهم تضحيته بنفسه؟»

الشاب: «كان يعيل أبًا عاجزًا عن العمل، وكانت له شقيقةٌ صغيرةٌ ذات صوتٍ رائع، فدعمها بأن تتلقى دروسًا في الموسيقى لكي تصبح قادرةً فيما بعد على إعالة نفسها، كما كان يمدّ شقيقًا صغيرًا بالمال لتعليمه في مدرسة الفنون التطبيقية، وبذلك يحقق رغبته في أن يصبح مهندسًا مدنيًا»

الشيخ: «هل حدَّ ذلك التصرف من راحة أبيه المسنّ؟»

الشاب: «نعم، بشكل كبير».

الشيخ: «هل توقّفت دروس الموسيقى التي تتلقاها الأخت الصغيرة؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «وتعليم الأخ الصغير حلّت به مِحنة أبطلتْ حلمه السعيد، فتوجّب عليه الذهاب لنَشْر الخشب أو شيءٍ من هذا القبيل كي يعول والده المسنّ، أليس كذلك؟»

الشاب: «بلى، هذا هو ما حدث تقريبًا»

الشيخ: «يا لها من تضحية رائعة قام بها! على ما يبدو لي أنه ضحّى بالجميع إلاّ نفسه، ألم أُخبِرك سابقًا بأنَّ لا أحد يضحّي بنفسه وليس هناك من حالة تُثبِتُ عكس ذلك في أي مكان، وإنه حين يَطلب المُسيطر الداخلي لإنسان عملاً بهدف الإرضاء، سواء أكان هذا الإرضاء مؤقتًا أم دائمًا، فيجب أن يُنفَّذ العمل

ويُطاع من دون أن يُعير بالاً لأي عقبة في طريقه أو أي شخص يدفع الثمن؟ لقد حطّم الرجل أسرته لإرضاء وإسعاد حاكمه الداخلي».

الشاب: «ولأجل المسيح».

الشيخ: «أجل، ولكن هذا الهدف ثانوي وليس أوليًّا كما يظن».

الشاب: «حسنًا، هذا رأيك، ولكن قد يكون الأمر أنه ارتأى كالتالي: وهي أنه إذا ساعد مئة شخص في نيويورك...»

الشيخ: «فيمكن تبرير موقفه في تضحية أسرته مقابل هذا المكسب الكبير، مقابل هذا الـ... الـ...، ماذا سندعوه؟»

الشاب: «هل ندعوه الاستثمار؟»

الشيخ: «ليس ملائمًا، ماذا لو دعوناه مضاربة أو مقامرة؟ إذ لم يكن واثقًا أنّ باستطاعته مساعدة شخص واحد. إنّها إذًا مقامرة؛ فقد رهن عائلته لأجل المقامرة. فلنرَ إلى أين سيصل به الأمر، لربما ننجح في معرفة الدافع الخفيّ بل الحقيقي الذي دفعه إلى التضحية بعائلته من أجل المسيح بينما هو محكوم بخرافة تُوهِمه أنه يضحي بنفسه. سأقرأ لكَ فصلاً من القصة..

ها هو الفصل! سينكشف الدافع عاجلاً أم آجلاً.

قضى زمنًا وهو يَعِظ رَعاع إيست سايد، ثم عاد إلى حياته الرتيبة والمغمورة في معسكر الحطابين، وكما ذكرتْ مؤلفة القصة: «تألّم في الصميم وخبا اعتداده بنفسه». ولمَ أصابه ذلك؟ أليست جهوده رامية لأجل الدين؟ ربّاه، لقد غفلتْ المؤلفة عن ذكْر هذه الحقيقة أو حتى الإشارة إليها، فسهَتْ كليًّا عن ذِكْر أنه ليس هناك من عملٍ إلاّ ووراءه دافع! إذًا أين تكمن مشكلة الحطّاب؟ نجدُ أنَّ المؤلفة تتملّص باللاشعور عن كشف هذه النقطة. إنّ المشكلة هي كما يلي: لقد كان الرجل يعِظ الفقراء فحسب وهذا ليس نهج حركة التسوية الجامعية؛ فهي تُعنى بأمور أكثر أهمية ووزنًا، وذلك لم يحفّز جماعة الحركة لتلك الفصاحة الفظّة التي يتّبعها عادةً جيش الخلاص. تعامَل دعاة الحركة مع هولم بتهذيب يشوبُه بعض البرود، فلم يلاطفوه أو يتودّدوا إليه. وتُكمل المؤلفة: «انهار كل ما كان يحلم به من امتياز واستحسان مِن قِبَل...»، مِن قِبَل مَن؟ المسيح؟ لا، فلم تأتِ المؤلفة على ذِكْره. مِن قِبَل مَن إذًا؟ «مِن قِبَل زملائه العمال». ولمَ كان يستجدي استحسانهم؟ لأن المُسيطِر على كيانه أراد ذلك ولن يكون راضيًا إلا في حال نال استحسانهم. إذًا الجملة المقتبَسة التي ذكرتُها أعلاه تكشف السرّ الذي كنا نبحث عنه، ألا وهو الدافع الأصلي والحقيقي الذي دفَع بحطّاب آديروندك المغمور ليضحّي بعائلته ويُغامِر بالذهاب إلى تلك الحرب الصليبية في إيست سايد. هذا يؤدي أنّ الدافع

الأصلي مِن كلِّ ما فعله هولم هو استعراض موهبته التي تسمو به نحو التميُّز أمام عالمٍ يجهله، وكما أخبرتُك سابقًا، جميع الأعمال تنبثق عن هذا القانون فحسب، وهذا الدافع. لكني أرجوكَ ألا تأخذ بكلامي من دون أن تبحث بنفسك عن القانون وتدرسه بإمعانٍ، فكلَّما صادفكَ في أثناء قراءتكَ أو سماعكَ عن عملٍ فيه روح التضحية بالنفس، أو عن القيام بواجبٍ كَرْمى للواجب فقط، فصِّلْه وابحث بين طياته عن الدافع الحقيقي الكامن، عندها ستجده دائمًا»

الشاب: «إني أقوم بالتفصيل والتحليل المُنهِك يوميًا من دون توقّف، إنّ الأمر مسلٍّ وكريه في آنٍ واحد، لكنه يأسرني، فكلّما صادفتُ عملاً نبيلاً في أثناء قراءتي لكتاب أتوقّف عنده وأبحث وأحلّل في حيثياته».

الشيخ: «وهل صادفتَ حتى الآن عملاً يدحض هذه القاعدة؟»

الشاب: «لا، على الأقل ليس بعد. ولكن كمثال: عنْد دفْع إكرامية للخادم في أوروبا، أنتَ تدفع لإدارة الفندق ثمن الخدمة، وليس عليك دفْع شيءٍ للخادم لكنكَ تدفع له، ألا يدحض هذا قاعدتك؟»

الشيخ: «وكيف ذلك؟»

الشاب: «أنتَ غير ملزَمٍ بالدفع له، فدافعك هنا هو التعاطف مع راتبه الضئيل، و ...»

الشيخ: «هل سبق أن أزعجتْك هذه العادة أو أربكَتْكَ؟»

الشاب: «في الحقيقة.. نعم».

الشيخ: «وما زلتَ خاضعًا لها؟»

الشاب: «بالطبع».

الشيخ: «ولمَ بالطبع؟»

الشاب: «لأنَّ العادة قانون يسري بطريقة ما ولا بدّ لكل فردٍ الخضوع للقانون وذلك على أنّه واجب».

الشيخ: «إذًا أنتَ تدفع هذه الضريبة المزعجة في سبيل الواجب؟»

الشاب: «أعتقد أنّ الأمر كذلك».

الشيخ: «إذًا لم يكن التعاطف والتسامح وفِعْلُ الخير هم الدافع الذي دفعك لتقديم الإكرامية؟»

الشاب: «حسنًا، ربما أنتَ على حق».

الشيخ: «وهل هناك ما يقرب الدافع؟»

الشاب: «أظن أنني تسرَّعْتُ في تحديد مصدر العمل».

الشيخ: «ربما، في حال تجاهلتَ عادة الإكرامية، فهل سيؤدي لكَ الخادم ما ترد بسرعة وفعالية؟»

الشاب: أَيُعقَل ما تقوله! ومَن؟ الخدَم الأوربيون! لن تحصل على أي شيء منهم في هذه الحالة».

الشيخ: «أليسَ ذلكَ حافزًا لتدفع الضريبة؟»

الشاب: «أنا لا أُنكِر ذلك».

الشيخ: «يتضّح لي إذًا أنها حالة أداء الواجب كَرْمى للواجب، مضافًا إليها بعض المصلحة الشخصية».

الشاب: «أجل، إنّها شيء من هذا القبيل، ولكن هناك أمرٌ آخر، وهو أننا ندفع الضريبة على الرغم من معرفتنا أنّها ابتزاز مُجحِف، ومع ذلك يعتصر الألم قلوبنا إنْ كنّا بخلاء مع أولئك المساكين، وسنودّ لو رجعنا إليهم لنقوم بالعمل الأكثر من الصواب، وهو العطاء. أعتقد أنّك ستجد صعوبةً في كشف شيء ينطوي على المصلحة الشخصية في هذا الدافع».

الشيخ: «أتعجّب لكلامك هذا، عند إيجادك مبلغ الخدمة ضمن قائمة حساب الفندق، هل يزعجك هذا؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «وهل سبق أن شكَوْتَ من قيمة المبلغ؟»

الشاب: «لا، ولن يخطر في بالي أبدًا».

الشيخ: «إذًا فالحساب ليس هو مدعاة الإزعاج لأنه مبلغ محدَّد، وأنتَ تدفعه برحابة صدر ومن دون تذمّر، وإنْ كان لكل خادم وخادمة مبلغ محدّد فهل كنتَ ستدفعه بطيبِ خاطر؟»

الشاب: «طِيْب خاطرٍ فقط! بل إنَّ ذلك يبعث على البهجة».

الشيخ: «حتى ولو كانت الضريبة المحددة أكثر بقليل مما اعتدْتَ دفعه كإكرامية؟»

الشاب: «أجل!».

الشيخ: «حسنًا إذًا أفهمُ من كلامك أنّ الدافع الذي يوجّهك لدفع الضريبة لم يكن تعاطفًا ولا واجبًا، ولا مبلغ الضريبة الذي يزعجك، بل هناك أمرٌ آخر يزعجك، فما هو؟»

الشاب: «المشكلة هي أنّك تجهل ما عليكَ دفعه، فالإكراميات تتفاوت في جميع أنحاء أوروبا».

الشيخ: «إذًا يتوجّب عليك أن تخمّنها؟»

الشاب: «لا توجد طريقة أخرى، فتواظب على التفكير والحساب والتخمين ومشاورة الناس لمعرفة آرائهم، كما أنَّ الموضوع يؤرِّقك ليلاً ويجعلك شديد الاضطراب أثناء النهار، وبينما أنتَ تتظاهر بأنّك منشغل برؤية المناظر يكون جلُّ تفكيرك منشغلاً بالتخمين طوال الوقت وتسيطر عليكَ حالة القلق والهمّ».

الشيخ: «وكل هذا من أجل دَيْنٍ لستَ ملزمًا بدفعه إلا إنْ شئتَ ذلك! إنّه لأمرٌ غريب، وما الغاية من كل هذا التخمين؟»

الشاب: «الغاية هي معرفة المبلغ الصحيح لأعطيهم إياه من دون أن أكون مجحفًا بحقهم في الوقت ذاته».

الشيخ: «إنه لتصرّف نبيل، فأنتَ تتحمّل الألم وتستهلك الكثير من وقتك الثمين لكي تكون عادلاً مع خادم مسكين لستَ ملزمًا بالدفع له فقط لأنه بحاجة إلى المال لضآلة أجره».

الشاب: «أظن في قرارة نفسي أنه لو وُجد دافع دنيء وراء هذا التصرف فإننا سنواجه مشقّة في البحث عنه».

الشيخ: «كيف يمكنك أن تعرف أنّ المبلغ الذي دفعته للخادم لم يكن عادلاً؟»

الشاب: «عندما يكتفي بالصمت ودون أن يتلفّظ بكلمة شكرًا، أو أنْ يرمقك نظرةً تُشعِرك بالخجل، حينها لا يسمح لك كبرياؤك بتصحيح خطئك، ومن حولك الناس تراقب ما تفعل، لكنك بعد ذلك تتمنى لو أنّك دفعتَ ما كان ينتظره منك الخادم. يا له من موقف مُخجِل ومؤلم! في بعض الأحيان تحكمك أفكار بأنك أبليتَ حسَنًا فتنصرف مرتاح البال، وفي أحيان أخرى يبالغ الرجل في شُكرك فتعلَم حينها أنكَ أعطيته مبلغًا أكثر بكثير من اللازم».

الشيخ: «اللازم؟ لأي شيء؟»

الشاب: «لإرضائه».

الشيخ: «وما شعورك حينها؟»

الشاب: «الندم».

الشيخ: «باعتقادي أنَّ محاولتك تخمين مستحقات الخادم لم تكن تُقلقك، بل استكشاف ما يُرضيه وهذا -برأيي- خداعٌ للذات».

الشاب: «وكيف ذلك؟»

الشيخ: «إنْ أعطيته أقلّ من توقعاته فسيرمقك تلك النظرة التي تُشعِرك بالخجل أمام المتفرّجين، وهذا سيؤلمك أنتَ فقط؛ إذًا أنتَ تعمل لأجل نفسك فقط وليس لأجله، فإنْ أعطيته مبلغًا كبيرًا فستخجل من نفسك وسيؤلمك هذا، حينها أنتَ تفكر في نفسك مجددًا وتحميها من الشعور بالقلق. أنتَ لا تفكر في الخادم على الإطلاق، إلا عندما تخمّن كيفية نَيْل رضاه، وإنْ نِلتَه نِلْت رضاك عن نفسك، وهذا الدافع الوحيد الذي تسعى إليه، فيرضى بذلك المُسيطِر على كيانك ويرتاح؛ وليس هناك من شيءٍ آخر ذي أولوية في مجمل حديثنا يفوق ضميرك المسيطر».

أمثلة أخرى

الشاب: «ولكني أتعجّب عندما أفكر بعد نقاشنا هذا أنّ التضحية بالنفس من أجل الآخرين، والتي هي أنبل ما يفعله الإنسان، ليست إلا عملاً وهميًا ومستبعدًا».

الشيخ: «هل تنسب الكلام إليّ».

الشاب: «بالتأكيد».

الشيخ: «ولكني لم أقل ذلك».

الشاب: «ماذا قلتَ إذًا؟»

الشيخ: «قلتُ أنّه ما من إنسان يضحي بنفسه بالمعنى المتعارف عليه لهذه العبارة، أي تضحية النفس من أجل الغير فحسب، فالإنسان يضحي يوميًا من أجل الآخرين ولكن الغاية هي نفسه قبل كل شيء، أي أنّه يضحي لإرضاء نفسه في المقام الأول، أما الآخرون المستفيدون فيأتون في المرتبة الثانية».

الشاب: «وهل يشمل هذا أيضًا أداء الواجب كَرْمى للواجب؟»

الشيخ: «نعم، فما من إنسان يقوم بواجبٍ كَرْمى للواجب فحسب؛ إذ لا بدّ أن ينطوي على إرضاء نفسه أولاً، وأن يشعر بالارتياح لأدائه على أنْ يتنصّل منه، وإلاّ امتنع عن أدائه».

الشاب: «لنضرب مثالاً عن حادث غرق السفينة بركلي كاسل».

الشيخ: «لقد كان ضربًا من العمل النبيل الذي تمت تأديته بمنتهى العظمة، حلّله وادرسه إنْ أردتَ ذلك».

الشاب: «سفينة بريطانية تنقل الجنود وزوجاتهم وأطفالهم، اصطدمت بصخرة وبدأت تغرق، وزوارق النجاة تتسع للأطفال والنساء فقط، صفَّ الكولونيل كتيبته فوق سطح السفينة وقال: «إنّ من واجبنا أن نموت كي نتمكّن من إنقاذهم». فلم يعترض أو يتفوّه أحد بكلمة، فأخذت زوارق النجاة الأطفال والنساء بعيدًا عن السفينة، وعندما حانت لحظات الحياة الأخيرة اتّخذ الكولونيل والضباط أماكنهم، أما الجنود فوقفوا مع أسلحتهم وكأنهم في عرض عسكري. وبينما كان علمهم يرفرف وطبولهم تدق كانوا يغرقون في البحر بالتدريج، إنها تضحية بالنفس كَرْمى للواجب، وهل يمكن رؤية الحادث من منحى آخر غير هذا؟»

الشيخ: «إنه لعمل جليل وسامٍ، هل تستطيع أن تصمد بين هذه الصفوف وتغرق حتى تلقى حتفك بهذه البسالة؟»

الشاب: «باستطاعتي! بالطبع ليس بوسعي ذلك».

الشيخ: «فكّر وتخيّل نفسك هناك تواجه حتفك في الماء وهو ينسلُّ إلى جسدك شيئًا فشيئًا».

الشاب: «يمكنني تخيّل هذا، ومدى الهلع الذي كنتُ سأشعر به، إنَّ مجرّد التخيّل هو لأمرٌ لا يمكن احتماله، أعلم أنه ما كان بمقدوري الثبات في مكاني بهذه الشجاعة».

الشيخ: «لماذا؟»

الشاب: «ليس هناك ما يدعو للتساؤل؛ إذ إني أعرف نفسي وأعرف أني لا أحتمل ما فعله الجنود».

الشيخ: «بل كان من واجبك الثبات لو كنتَ مكانهم».

الشاب: «أعلم، لكني ما كنتُ أحتمل».

الشيخ: «لقد كانوا أكثر من ألفِ رجل، وعلى الرغم من ذلك لم يجْفَل أحدٌ منهم، لا بدّ أنَّ بعضهم وُلِدوا ولهم مزاجك نفسه؛ فإنْ استطاعوا أداء هذا الواجب العظيم كَرْمى للواجب فأنتَ تستطيع بدورك ألا تعلَم أنّ بإمكانك الذهاب لجمع ألف كاتب وعامل على ظهر السفينة، فلو طلبتَ منهم الموت كَرْمى للواجب لغادروا أماكنهم».

الشاب: «أجل، أعلم ذلك».

الشيخ: «ولكنك إنْ درَّبتهم وزجَّيْت بهم في ميدان معركة أو معركتين فسيصبحون جنودًا، ولديهم كبرياء الجندي واعتداده ومُثُله العليا، وحينها يتوجّب عليهم إرضاء نفسية الجندي، لا نفسية الكاتب أو العامِل، وهل بإمكانهم إرضاء تلك النفسية بالتملُّص من واجب الجندي؟»

الشاب: «لا أظنّ ذلك».

الشيخ: «إذًا في هذه الحالة هم لا يؤدون الواجب كَرْمى للواجب بل كَرْمى لأنفسهم أولاً، فالواجب نفسه لم يتغيّر، كما أنّه كان بنفس الإلزامية حين كانوا كُتّابًا أو عُمَّالاً أو جنودًا جُدُدًا، لكنهم لم يؤدوا الواجب لإلزاميّته، فلدى العمال والكتَّاب مُثُلاً عُليا أخرى وأنفسًا أخرى يتوجّب عليهم إرضاؤها، وأرضوها، لأنّه قانون تكوينهم. إنّ التدريب فعّال، وتدريب الإنسان حتى يتشبّع بمُثُلٍ عُليا أسمى وأسمى يستحقّ تفكيره وجهده واجتهاده».

الشاب: «لندرس إذًا حالة رجلٍ فضّل وأولَى واجبه ولو أصبحت حياته على المِحَكّ».

الشيخ: «إنّ هذا يتبع تكوينه وتدريبه، فيجب عليه إرضاء نفسه حتى ولو جازف بحياته. وكمثالٍ عن رجلٍ آخر مخلصٍ لواجبه الإخلاص نفسه ولكنّ تكوينه مختلف، لكنه ليس كفؤًا لأداء الواجب على الرغم من معرفته أنّه واجب ويحزنه أنه غير قادرٍ على أدائه، ولكن لا بدّ له من إرضاء نفسه، وليس بمقدوره أن يؤدي الواجب كَرْمى للواجب وهذا بدوره لن يرضي نفسه التي هي أولى أولوياته وتتصدَّر جميع الواجبات».

الشاب: «لنضرب مثالاً عن حالة رجل الدِّين الشريف والذي يقترع لصالح لصٍّ في بطاقة حزبه، وضدَّ رجلٍ نزيهٍ في بطاقة الحزب الآخر».

الشيخ: «يتوجّب عليه إرضاء نفسه، وهنا تتلاشى الأخلاق العامة والخاصة حيث يكون فوز حزبه على حافة الهاوية، إنه سيظلّ ملتزمًا بطبيعة تكوينه وتدريبه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

التدريب

الشاب: «يبدو أنك لا تفتأُ عن استخدام هذه الكلمة (التدريب)، هل تعني بها...»

الشيخ: «الدراسة، التعليم، المحاضرات، المواعظ؟ إنها جزءٌ من تكوين عملية التدريب ولكنه ليس جزءًا كبيرًا، أعني بعملية التدريب كل المؤثرات الخارجية، وهناك الملايين منها، فمن المهد إلى اللحد وحتى خلال ساعات اليقظة تؤثِّر عملية التدريب على الكائن البشري. يحتل تداعي المعاني المرتبة الأولى من مدرِّبيه، فبيئته هي التي تؤثِّر في فكره وشعوره، وتمدّه بمُثُله العُليا، كما أنّها تضعه في بداية طريقه وتجعله ثابتًا على هذا المنوال، فإنْ حادَ عن هذا الطريق فسوف يلفي نفسه منبوذًا من أكثر الناس الذين يحبهم ويحترمهم، والذين يهتمُّ لرضاهم. هو أشبه بالحرباء التي تبدّل لونها تبعًا للمكان الذي تلجأ إليه وذلك بمقتضى قانون طبيعتها. فالمؤثرات المحيطة هي التي تساهم في خلْق أولوياته ومبادئه وذوقه وأخلاقه وديانته، أي أنّه لا يخلق هذه الأشياء من تلقاء نفسه على الرغم من ظنه أنه كذلك فإن ذلك ناشئ من عدم دراسته الدقيقة للموضوع. هل سبق ورأيتَ أحدًا من أتباع مذهب الكنيسة المشيخية([5])؟»

الشاب: «رأيتُ العديد منهم».

الشيخ: «كيف أصبحوا أتباعًا لمذهب الكنيسة المشيخية ولم يصبحوا أبرشيين؟ ولماذا لم يكن الأبرشيون كاثوليكيين، ولم يكن الكاثوليك بوذيين، ولم يكن البوذيون هندوسيين، ولم يكن الهندوسيون لادينيين، ولم يكن اللادينيون روحانيين... وهكذا؟»

الشاب: «يمكنك الإجابة عن سؤالك بنفسك».

الشيخ: «هذه القائمة بأسماء المذاهب ليست سجلاً لدراساتٍ وأبحاث والسعي وراء الحقيقة، بل هي تشير إلى إمكانات تداعي المعاني، فإنْ عرفتَ جنسية شخصٍ لأمكنك أن تخمّن نوع ديانته: إنْ كان إنجليزيًا بروتستانتيًا أو أمريكيًا بروتستانتيًا أو إسبانيًا أو فرنسيًا أو إيرلنديًا أو إيطاليًا أو نمساويًا كاثوليكيًا أو روسيًا أرثوذوكسيًا أو تركيًّا مسلمًا... وهكذا. وعند معرفتك مذهب شخص ستعرف نوع الكتب التي يقرؤها ليستنير بها، ونوع الكتب التي يتفاداها خِشية أنْ تهديه أكثر مما ينبغي. في أمريكا -على سبيل المثال- إنْ عرفتَ من ملابس الناخب ما هو حزبه فستعرف سلسة علاقاته، وكيف توصَّل إلى آرائه

السياسية، وأيّ صنف من الجرائد يقرأ ليستفيد وأي صنفٍ يواظب على تفاديه، وفي أيّ الاجتماعات الحاشدة يوجد ليَنْهل معرفة وعن أيها يغيب، إلا في حال أراد دحْض عقائدها بالملاحظات الجارحة. لطالما سمعنا عن أشخاص يهدفون إلى البحث عن الحقيقة، لكنه لم يسبق لي أنْ سمعتُ عن شخصٍ واحدٍ واظب في بحثه عنها، ولا أعتقد أنه وُجِد أساسًا، لكني قد رأيتُ كُثُرًا اعتقدوا أنهم باحثون مواظبون عن الحقيقة، بحثوا بجدّ وبدقة وتعمّقوا في بحثهم بمنتهى المصداقية والحكم السديد، إلى أنْ اعتقدوا أنهم قد عرفوا الحقيقة من دون اللجوء إلى التشكيك أو التساؤل، وبهذه الحالة انتهى بحثهم. إنَّ الباحث من أمثال هؤلاء يقضي بقية حياته في اصطياد الحجج لإثبات حقيقته. فإنِ انشغل في البحث عن الحقيقة السياسية فهناك مئة مذهب سياسي يسيطر على سكان هذا العالَم؛ وإنْ كان باحثًا عن الدين الحق والأوحد لَوجَدَ العقيدة التي يُنشِدها من بين ثلاثة آلاف ديانةٍ تقريبًا. وفي كلتا الحالتَين عندما وجَد الحقيقة توقَّف عن البحث، ولكنه منذ ذلك اليوم ثابرَ على ترميمه الثقوب جميعها وحاول إقناع معارضيه بالحجة. هناك عدد لا يُحصى من الباحثين بشكل مؤقت عن الحقيقة، لكن هل سبق وسمعتَ عن شخصٍ دائم البحث من دون كلل؟ وفقًا للطبيعة البشرية وجود شخصٍ كهذا أمرٌ مستحيل؛ لكن بالعودة إلى موضوع التدريب، فالتدريب أيًّا كان نوعه يبقى ناجمًا عن المؤثر الخارجي، وتداعي المعاني يشكّل الجزء الأكبر من عملية التدريب، فالإنسان ليس سوى نتاج المؤثرات الخارجية التي كوّنته على ما هو عليه، فإما أنْ تنحدر به وإما تسمو به، ولكنها تدرِّبه في الأحوال كافة وتؤثر فيه على الدوام»

الشاب: «تبعًا لذلك إذا صادفته ظروف صعبة في حياته فليس هناك من شي ينقذه، وبحسب ما قلتَ سابقًا فهنا التدريب ينحدر به نحو الأسفل».

الشيخ: «ليس هناك من شيء ينقذه؟ لا شيء ينقذ هذه الحرباء؟ هذا كلامٌ خاطئ. إنّ نجاحه الباهر في الحياة يكمن في التشابه بينه وبين الحرباء، فليس من واجبه شيء سوى التلوّن بلون البيئة التي يلجأ إليها، وتغيير علاقاته، لكن الدافع إلى أداء هذا التغيير نابع من الخارج؛ إذْ ليس بمقدوره ابتداع دوافع من تلقاء نفسه.

ففي بعض الأحيان يمكن لشيء عارض وطارئ أن يمدّه بالدافع الأولي الذي يضعه على مشارف طريق جديدة ومثل أعلى جديد، فعلى سبيل المثال: من شأن تعليقٍ عابرٍ من محبوبته، مثل: «قيل لي إنّك جبان»، أن يروي البذرة التي تنبت وتزهر لتصبح ثمرةً تدعو للدهشة في ميادين الحرب. وتاريخ البشرية مليء بأحداث شبيهة، فمثلاً حين كُسِرت ساقُ جنديٍّ دنيءٍ وعربيدٍ وجد نفسه يتبع مؤثرات دينية أمدّته بمُثُلٍ عُليا جديدة، وبعد هذا الحادث انبثق

مذهب اليسوعيين الذي زعزع عروشًا وغيَّر سياساتٍ وقام بالعديد من الأعمال الضخمة على مدى مئتي سنة، ولسوف يثابر.

يمكن لقراءةٍ عابرةٍ لكتابٍ أو لفقرةٍ في صحيفة أن تضع الإنسان على مسارٍ جديدٍ وأن تدفعه إلى التخلي عن ارتباطاته القديمة لخلق ارتباطات جديدة تتوافق مع مُثُله العُليا الجديدة، وفي هذه الحال تتغيَّر طريقة حياة الإنسان كليًا».

الشاب: «هل هناك تلميح في كلامك لإجراءٍ بعَينه؟»

الشيخ: «ليس بجديد، بل هو قديم قِدَم الجنس البشري».

الشاب: «وما هو؟»

الشيخ: «هو مجرّد نصْب فخاخ للناس، فخاخ تُلقي طُعمًا من الدوافع الأولية نحو مُثُل عُليا نبيلة، وهذا هو ما يفعله موزّع الرسائل الدِّينية ويفعله المبشِّر وهو أيضًا ما يجب على الحكومات أن تفعله».

الشاب: «ألا تفعل الحكومات ذلك؟»

الشيخ: «في بعض الأحيان تفعل وأحيانًا أخرى لا تفعل. فالحكومات تعزل مرضى الجدري عن الأصحّاء، ولكن في معالجتها للجرائم تُدخل السليم في منطقة الوباء مع المرضى، بعبارة أخرى تُدخِل المبتدئين مع المجرمين المعتادين على الإجرام. ولربما كان هذا الأسلوب جيدًا لو أنَّ الإنسان كان ميَّالاً بطبيعته إلى الخير، لكنه ليس كذلك، بالنتيجة ستجعل العلاقات الجديدة من المبتدئ شخصًا أسوأ مما كان عليه قبل زجِّه في السجن، وإنّ في ذلك فرضٌ لعقوبة صارمة للغاية على الأبرياء نسبيًا. فالحكومات تعدُم رجلاً وإنها لعقوبة بسيطة إن قيْست بالجريمة، ولكنها أفجعت عائلته، وهذه عقوبة قاسية. والحكومة تسجن من يعتدي على زوجته بالضرب، وفي السجن يقدِّمون له الطعام، بينما تعاني زوجته المسكينة وعائلته من الجوع»

الشاب: «هل تؤمن بالنظرية القائلة إنّ الإنسان لديه إدراك فطري للخير والشرّ؟»

الشيخ: «لكن الإنسان الأوّل لم يكن لديه هذا الإدراك».

الشاب: «إذًا، هل اكتسبه الإنسان فيما بعد؟»

الشيخ: «لا، لا أعتقد أنّ الإنسان يتمتّع بإدراك فطري من أي نوع، فهو يكتسب جميع أفكاره وانطباعاته من الخارج. إنّي لا أكفّ عن تكرار هذه الفكرة آملاً أن تترك في نفسك أثرًا يحثُّك على المُضي في البحث والملاحظة بنفسك لتعرف إنْ كان ما أقوله صوابًا أم زائفًا».

الشاب: «ومن أين اكتسبتَ أنتَ مفاهيمك المتشددة هذه؟»

الشيخ: «من الخارج، أي أني لم أخترعها، فهي حصيلة ألف مصدر لا أذكره وأغلب هذه المصادر تجمّعت في اللاوعي».

الشاب: «ألا تؤمن بأن الله يمكنه خلْق إنسان شريفٍ بالفطرة؟»

الشيخ: «نعم، أؤمن بذلك، كما أعلم في الوقت نفسه أنّه لم يخلق إنسانًا بهذه الصفة».

الشاب: «لقد سجَّل مراقبٌ أعقلُ منك حقيقة تقول: «إنّ الإنسان الشريف هو أسمى ما خلق الله».

الشيخ: «هو لم يسجِّل حقيقة بل سجّل زيفًا، نعم إنّها عبارة طنّانة وتبدو جميلة لكنها ليست صحيحة، فالله خلَق الإنسان ولديه إمكانية لأن يكون شريفًا أو غير شريف، أما تداعي المعاني فهو يُنمّي الإمكانات، إما في أن يكون رجلاً شريفًا أو رجلاً غير شريف».

الشاب: «ولا يحقّ للرجل الشريف أنْ...»

الشيخ: «يتفاخر؟ لا، كم مِن مرة يتوجّب عليّ أن أكرر ما أقوله؟ إنه ليس خالق صفة الشرف التي يتصف بها».

الشاب: «والآن أطرح عليك سؤالاً: ما النفع من تدريب الناس في أنْ يعيشوا حياةً فاضلةً؟ وما المكسب من ذلك؟»

الشيخ: «إنّ ذلك يعود على الإنسان الفاضل بنفعٍ كبيرٍ وهذا أهمُّ ما في الأمر، فهو إذًا لا يشكّل خطرًا على جيرانه، وفضيلته هذه تعود عليهم بالنفع، وهذا المهم بالنسبة إليهم. ويمكن أنْ يطيْب عَيش الطرفين كليهما المعنيَّين بالفضيلة؛ أما تجاهُلها كحالة من حالات التدريب فيمكن أن يعرّض حياة الطرفين المعنيَّين للخطر والضِّيق».

الشاب: «لقد سبق وأنْ قلتَ أنَّ عملية التدريب هي كل شيء، بل هو الإنسان نفسه لأنه هو المكوّن لما هو عليه».

الشيخ: «قلتُ التدريب بالإضافة إلى شيء آخر، نذكره لاحقًا، أما الآن ما الذي كنتَ تهمُّ بقوله؟»

الشاب: «لدينا خادمة عجوز تخدم عندنا منذ اثنتين وعشرين سنة، وعلى مدى سنين خدمتها كانت تؤدي عملها على أكمل وجه، لكنها في الآونة الأخيرة أصبحت كثيرة النسيان. جميعنا نحبها وندرك أنّها لا تستطيع مقاومة أعراض الشيخوخة التي تصيبها، حتى أنّ العائلة لا توبّخها على إهمالها، إلاّ أنا في بعض

الأحيان، إذْ لا أستطيع كبْح نفسي. ربما تتساءل هل أحاول كبْح نفسي؟ إني أحاول بالفعل كبحها. فعلى سبيل المثال: في هذا الصباح عندما كنتُ على وشك ارتداء ملابسي لم أجد ملابس نظيفة لأرتديها، فخرجتُ عن طوري على الفور. قرعتُ الجرس وبدأتُ في الحال أحذّر نفسي بألا أكون عصبي المزاج، وأنْ أتروّى وأُظهِر بعض اللطف عند الكلام. توخّيتُ الحذر حتى أني انتقيْتُ العبارة الأفضل لأقولها: «لقد نسيتِ الملابس النظيفة يا جين». لكن عند دخولها من الباب كدتُ أقول تلك العبارة، لكنّي فقدتُ أعصابي التي خانتني حالاً حتى قلتُ لها بأسلوب حادٍّ خارجٍ عن سيطرتي وأشبه بالتوبيخ: «لقد نسيتِهم مجددًا!»

ذكرتَ لي سابقًا أنّ الإنسان يقوم على الدوام بالشيء الذي يُرضي ملكه الباطني، فمن أين إذًا حضَرَني الدافع ليُهذّب أسلوبي لتجنيب الخادمة إذلال التوبيخ؟ وهل الملك الباطني الذي لا يهمّه سوى نفسه في المقام الأول هو مَن أتى بالدافع؟»

الشيخ: «بلا شك، فليس ثمة مصدر آخر لأيٍّ دافع، كما أنّك هيّأتَ نفسك لتجنيب الخادمة التوبيخ وهذا يحتل المرتبة الثانية، ولكنَّ الهدف من إجرائك هذا هو صَوْن نفسك أولاً بمجرّد إرضاء ملكك الباطني».

الشاب: «ماذا تقصد بذلك؟»

الشيخ: «هل سبق وتوسّل إليك أحدٌ من أفراد عائلتك بأنْ تسيطر على نفسك كي لا تُهين الخادمة بالكلام؟»

الشاب: «نعم، توسّلتْ إليّ أمي».

الشيخ: «وهل تحبها؟»

الشاب: «نعم، أكثر من أيّ شيء!»

الشيخ: «وهل تفعل أقصى طاقتك لتُسعِدها؟»

الشاب: «إنَّ إسعادها من دواعي سروري!»

الشيخ: «حسنًا، تفعل أي شيء من أجلها، من أجل الربح أيْ المكسب. وما المكسب الذي تتوقع أنْ تتلقّاه من هذه الصفقة؟»

الشاب: «أتلقّاه شخصيًا؟ لا أتوقّع شيئًا، ما يهمني هو إسعادها فحسب».

الشيخ: «إذًا يبدو لي أنَّ غايتك الأولى لم تكن تجنيب الخادمة الإذلال، بل إسعاد والدتك، وهذا يعود عليكَ بالسعادة أيضًا. أليس ذلك بمكسب يعود عليك من هذه الصفقة؟ أليس ذلك المكسب الحقيقي والأولي؟»

الشاب: «حسنًا، استمر».

الشيخ: «في معاملاتك كافة يقيّم المَلِك الباطني المعاملة إنْ كانت تعود عليك بالربح أولاً، وإلاّ ألغاها».

الشاب: «حسنًا إذًا لو كنتُ أنا متلهّفًا وعازمًا للغاية على كسب ذلك الربح، فلمَ أفقده بمجرّد أنْ أخرج عن طوري؟»

الشيخ: «طمَعًا في ربحٍ آخر يفوقه قيمة».

الشاب: «وأين كان ذلك الربح الآخر؟»

الشيخ: «كان كامنًا وراء مزاجك الفطري وينتظر انتهاز الفرصة. فمزاجك الفطري المتّقد غلبك فجأة وقفز إلى المقدمة، وفي هذه اللحظة أثّر فيك بقوة أكثر من أثَر والدتك، فألغاه. في هذه الحالة كنتَ توّاقًا لإظهار توبيخك اللاذع والتمتّع به، لقد أمتَعكَ أليس كذلك؟»

الشاب: «بلى أمتعني، لكن لربع ثانية فقط».

الشيخ: «جيد هذا يشبه ما ذكرتُه سابقًا، أنّ الشيء الذي يمنحك أكبر قدْرٍ من الرضا أو السرور في أي لحظة أو جزء من لحظة، لَهُوَ الشيء الذي ستواظب على القيام به، فلا بدّ لك أن تُرضي نزوة المَلِك الباطني أيًّا كانت»

الشاب: «ولكن عندما ترقرقتْ عينا الخادمة العجوز بالدموع تمنيتُ لو أقطع يدي ندمًا على ما اقترفْته».

الشيخ: «أنتَ على حق، لقد أسأتَ إلى نفسك، ألم تلاحظ أنكَ سبّبت لنفسك الألم. إنّ الإنسان لا يُولي أهمية لشيء إلا إنْ كانت نتائجه تعود عليه بالضرر أو الربح، وما عدا ذلك أمور ثانوية بالنسبة إليه.

إنّ مَلِكك الباطني غير راضٍ عنك مع أنّك امتثلتَ له حين وبّخت الخادمة، طلبَ ندمًا فوريًا فامتثلتَ لهُ من جديد، إذْ كان لا بدّ أن تمتثل، فليس ثمة مهرب من أوامره. إنه ملكٌ متشدّد ومتقلّب الرأي في جزءٍ من ثانية، ومع ذلك لا بدّ أن تكون مستعدًا للامتثال له وهذا ما ستفعله على الدوام فإنْ طلبَ ندمًا فوريًا لتُرضيه، تُقْدِمُ أنتَ على الندم طواعيةً له. ويتوجّب عليك أنْ تلاطفه وترفق به وتواظب على إرضائه».

الشاب: «التدريب! وبمَ ينفع إذًا؟ ألَم أحاول أنا كما حاولت أمي معي أنْ أتدرّب على ألاّ أوبّخ الخادمة من جديد؟»

الشيخ: «ألم يسبق لكَ أنْ نجحتَ في صون لسانك؟»

الشاب: «بالتأكيد، نجحتُ مراتٍ عدة».

الشيخ: «مراتٍ أكثر هذا العام منها في العام الماضي؟»

الشاب: «أجل، أكثر بكثير».

الشيخ: «في العام الماضي أكثر منها في سابقه؟»

الشاب: «أجل».

الشيخ: «إذًا هناك تحسُّن كبير خلال السنتين؟»

الشاب: «أجل، من دون شك».

الشيخ: «ها أنتَ أجبتَ عن سؤالك بنفسك، أترى كيف ينفع التدريب! استمر بأمانة، فأنتَ تُبلي حسنًا».

الشاب: «وهل تحسُّني هذا يصل حدّ الكمال؟»

الشيخ: «نعم، سيصل إلى أقصى حدود ميولك».

الشاب: «ميولي؟ وماذا تقصد بهذه الكلمة؟»

الشيخ: «ألا تذكر ما قلته لي عندما صمَّمتَ أنَّ التدريب هو كل شيء، فعقّبتُ عليك «نعم التدريب إضافةً إلى شيء آخر»، والشيء الآخر هو المزاج والذي هو الميل الذي وِلِدَ معك. ليس بوسعك استئصال ميلك ولا اجتثاث جزء منه، كل ما يمكنك هو أنْ تحوْل دون ظهوره وتُبقيه هادئًا، هل أنتَ عصبي المزاج؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «لن تتمكّن من التخلّص من هذا المزاج، لكن بمراقبتك إياه سيكون بمقدورك تهدئته طوال الوقت تقريبًا، فوجوده مرهونٌ بحدود ميولك. ولن يبلغ تحسُّنك حدّ الكمال إطلاقًا، لأن مزاجك سيهزمك عاجلاً أم آجلاً، لكنك ستقترب من الكمال بما فيه الكفاية، إذْ إنّك حققتَ تقدّمًا ملحوظًا وبوسعك تحقيق المزيد. إنّ للتدريب نفعًا هائلاً، وعمّا قريب ستبلغ مرحلةً جديدة من مراحل النضوج حتى يصبح تقدّمك أمرًا يسيرًا بالنسبة إليك ويواصل سَيْره على أساس أبسط».

الشاب: «وضّح».

الشيخ: «أنتَ تكبح نفسكَ عن التوبيخ الآن لأنك تُرضي نفسك عن طريق إرضائك والدتك، وبالتدريب الحالي ستُرضي كبرياءك بمجرد انتصارك على مزاجك وسيمنحك ذلك سعادة ورضا بالغَين أكثر مما يمنحك رضا والدتك

عنك، عندها سوف تبلغ نفسك مباشرة وليس عبر الطريق الملتوية التي تزجّ والدتك في الأمر. وهذا يبسّط الأمر كما أنه يقوّي الدافع».

الشاب: «يا إلهي! لكني لن أبلغ تلك المرحلة التي سأُجنِّب فيها الخادمة ألم التوبيخ من أجل نفسها أولاً، وليس من أجل نفسي؟»

الشيخ: «أجل، في العلياء».

الشاب: «(بعد لحظة تأمل) المزاج؟، لا بدّ لي أن آخذه بعين الاعتبار، إنه عامل مهم بالتأكيد. فأمي امرأةٌ يقظة وليست عصبية المزاج، حين ارتديتُ ملابسي ذهبتُ إلى غرفتها لكنها لم تكن هناك، ناديتُها فأجابتني من الحمام، سمعتُ صوت جريان الماء، فاستفسرتُ منها، فأجابتني بِرويّة أنَّ جين نسيَتْ تنظيف حمامها، ما استدعى أنْ تقوم هي بذلك. فاقترحتُ أنْ أرنّ الجرس، لكنها قالت: «لا، أرجوك ألاّ تفعل ذلك لأنّك ستُثير استياءها إنْ واجهتها بنسيانها المتكرر وكأنك توبّخها، إنها لا تستحق التوبيخ، ولا تُلامُ على خذلان ذاكرتها لها». أتساءل بعد كلامها هل لدى والدتي مَلِك باطني؟ وأين كان في ذلك الوقت؟»

الشيخ: «كان موجودًا يبحث عن أمنه ولذَّته ورضاه، فاستياء الخادمة إن عُرّضتْ للتوبيخ سيؤلم والدتك، وإلاّ لنهرتِ الخادمة بالشتائم، وإني أعرف نساءً يتمتّعنَ بمنتهى اللذة لو أنهنّ أرسلن في طلَبِ جين، لذلك لن يردعهنَّ دق الجرس ممتثلاتٍ بذلك لقانون تكوينهنَّ وتدريبهنَّ، وهذان الأمران ممتثلان بدورهما للمَلِك الباطني لكل واحدةٍ منهنَّ. ومن المحتمل جدًا أنّ جزءًا من صبْر والدتك نابعٌ من التدريب الصالح، ومهمّة هذا التدريب العُليا والأفضل هي أنّه في كلّ مرّةٍ يَبعثُ في نفس الإنسان الرضا نتيجةً لعمله يكون قد عاد بالنفع على الآخرين من هذا العمل أيضًا».

الشاب: «إنْ كنتَ تنوي أن تلخّص في نصيحة واحدة خطّتك لإصلاح شامل للبشر، فكيف ستعبّر عنها؟»

نصيحة

الشيخ: «واظِبْ على تدريب مُثُلك العُليا حتى تسمو تدريجيًا إلى ذروةٍ تصلُ فيها إلى لذّتك القصوى عبر سلوكٍ يُرضيك، وفي نفس الوقت تكون على ثقةٍ بأنه سيعود على جارِك ومجتمعك بالنفع».

الشاب: «وهل هذه عقيدةٌ جديدة؟»

الشيخ: «لا».

الشاب: «هل سبق وعلّمها أحد؟»

الشيخ: «لمدة عشرة آلاف سنة».

الشاب: «ومَن علّمها».

الشيخ: «جميع الأديان والشرائع العظيمة».

الشاب: «إذًا، لا جديد في الأمر؟»

الشيخ: «بل هناك، وهو الإعلان عنها بصراحةٍ هذه المرّة، وهذا ما لم يسبق لأحدٍ فعله».

الشاب: «ماذا تقصد؟»

الشيخ: «ألمْ أضعكَ في المرتبة الأولى، ويليك جارك ومجتمعك؟»

الشاب: «نعم، هذا صحيح، إنّه فارق».

الشيخ: «هو الفارق بين الكلام السويّ والكلام الملتوي، والفارق بين الصراحة والمراوغة».

الشاب: «وضِّح».

الشيخ: « تقدِّم الكثير من المِلَل الأخرى لكَ مئة رشوة حتى تكون إنسانًا صالحًا، وعليه إنها تُقِرُّ بأنَّ المَلِك الباطني الذي يُسيطِر عليك لا بدّ أنْ يتم استرضاؤه أولاً، كما تُقِرُّ بأنك لن تفعل شيئًا إلا كَرْمى له، ثم تبدِّل موقفها وتطلبُ منك أنْ تكون إنسانًا صالحًا يفعل الخير من أجل الآخرين قبل كل شيء، وأن تؤدي الواجب كَرْمى للواجب فحسب، وأن تقوم بأعمالٍ تتّسم بالتضحية بالنفس، وهكذا تعرف بأنَّ البداية مشابهةٌ في جميع هذه الأعمال، وهي اعترافٌ بالانقياد إلى المَلِك الأعلى والاستبدادي الذي يُهيمِن على كيان الإنسان، والذي ننحني أمامه نسترضيه ونلجأ إليه، ولكنَّ أدبيات المِلَل الأخرى تُراوِغ وبأسلوبٍ غير صريحٍ وغير ثابتٍ وغير منطقيٍّ، تغيّر مظهرها وتوجِّه معتقداتها نحو تحريض الدوافع الثانوية للإنسان، ونحو دوافع لا وجود لها ولذلك تعمل على رفْع هذه الدوافع إلى مرتبة أولى؛ وبخصوص نصيحتي التي ذكرتها لكَ سابقًا فإني أتمسّك برأيي الأول بشكل منطقي وثابت، كما أضع مطالب المَلِك الداخلي في المرتبة الأولى دائمًا».

الشاب: «إذا افترضنا أنّ وصاياك والوصايا الأخرى تهدف إلى أمرٍ واحد وتحققه، وهذا الأمر هو (الحياة السليمة)، فهل لوصاياك مِيزةٌ تفوق نظيراتها؟»

الشيخ: «نعم، ميزة واحدة وكبيرة، وهي أنّ وصاياي لا تتّسم بالتمويه والتضليل، وحين يعيش الإنسان حياة سويّة وكريمة بموجب هذه الوصايا، فلن

تغرّه مغالطات تحاول تفسير الدافع الرئيس الذي يُسيِّر سلوكه، أما في الوصايا الأخرى فسيُعرّض لمثل هذه المغالطات».

الشاب: «وهل تُعدّ ميزةً؟ أنْ يعيش الإنسان حياةً كريمة في سبيل هدف دنيء؟ وأنْ يعيش تبعًا للوصايا الأخرى حياةً كريمة بموجب فكرة أنّه يعيش في سبيل هدفٍ نبيلٍ. أليست تلك بميزةٍ؟»

الشيخ: «ربما، كما يمكنه أنْ يتمتّع بنفس الميزة وهي خداع ذاته، حين يَخال نفسه دوقًا ويتصرّف ويحيا وفقًا على هذا الأساس، بينما في الواقع هو ليس بدوقٍ على الإطلاق، وبإمكانه اكتشاف هذه الحقيقة إنْ بحث في سجلّات مَنْح الألقاب النبيلة».

الشاب: «لكنه في معظم الأحوال مضطرٌ إلى أداء دور دوق، فهو يتصدّق بماله بأقصى مبلغ يمكنه تقديمه، وهذا يعود بالنفع على المجتمع».

الشيخ: «كان بإمكانه فِعْل ذلك من دون الحاجة إلى أنْ يكون دوقًا».

الشاب: «أكان بإمكانه بالفِعل؟»

الشيخ: «ألا تلاحظ إلى أين أوديتَ بنفسك في النقاش؟»

الشاب: «إلى أين؟»

الشيخ: «إلى موقف الوصايا الأخرى التي تعتقد أنَّ عمل الخير هو أن ندَعَ دوقًا جاهلاً يتصدّق بصدقةٍ استعراضية ليس لشيءٍ سوى إرضاء كبريائه، وهذا حافزٌ دنيء جدًا، ومع ذلك لا نردعه عن تفاخره خشية أنْ يعرف الحافز الحقيقي لعمل الخير، وهذا ما يستدعيه إلى التوقف عن التصدُّق وعمل الخير».

الشاب: «لكن أليس من الأفضل أن يبقى جاهلاً بهذا الحافز طالما أنه يظنّ أنّ أعماله الخيرية هي من أجل الآخرين؟»

الشيخ: «ربما، إنه موقف الوصايا الأخرى التي تُحلِّل الدَّجَل على أنه مكرُمة أخلاقية إنْ كان يعود علينا بمآثر طيبة وسلوك مُرضٍ».

الشاب: «باعتقادي أنّ وصاياك التي تنصّ على أنّ الإنسان يفعل الخير كَرْمى لنفسه أولاً بَدَل أن يكون كَرْمى للعمل بذاته، لهي وصايا تُبعد الناس عن عمَل الخير إنِ اتّبعوها».

الشيخ: «هل أدّيتَ صدقةً مؤخرًا؟»

الشاب: « نعم، صباح اليوم».

الشيخ: «أرجو أن تمدّني بالتفاصيل».

الشاب: «احترق مساء البارحة كوخ المرأة الزنجية التي ربّتني عندما كنتُ طفلاً، والتي أنقذت حياتي يومًا ما معرّضة حياتها للخطر، فقدِمَت إلينا صباح اليوم تبكي وتطلب المال لبناء كوخ آخر».

الشيخ: «وهل أعطيتها المال؟»

الشاب: «بلا شكّ».

الشيخ: «وهل أسعدكَ أنّك كنتَ تملك المال؟»

الشاب: «المال؟ لم أكن أحمل ما يكفي منه؛ لذا بعتُ حصاني».

الشيخ: «وهل أسعدكَ أنْ يكون لديك حصانٌ يحلُّ المشكلة؟»

الشاب: «بالطبع، فلولا الحصان لكنتُ عاجزًا عن تقديم المعونة المالية، ولانتهزت والدتي الفرصة لمساعدة العجوز سالي».

الشيخ: «وهل أسعدكَ أنّك تستطيع أن تحلّ الأمر من دون أن تجد نفسك عاجزًا؟»

الشاب: «أسعدني ذلك حقًا».

الشيخ: «إذًا الآن...»

الشاب: «على رِسلك، أعرف قائمة الأسئلة التي ستطرحها عليّ؛ لذا لا داعي لهدر الوقت في الأسئلة لأني سأجيبك عنها، لكني سأختصر الأمر كله في نقطةٍ واحدةٍ: لقد أحسنتُ إلى العجوز سالي لأنّي أعلم في قرارة نفسي أنّ ذلك سيبعث في نفسي لذةً متوقدةً، ولأنّ تعابير وجهها المؤثِّرة حينها والمُقرّة بالفضل والامتنان لانتشالها من مأزقها أشعرتني بزخمٍ من السعادة والرضا. فعلت هذا الأمر بكامل وعيي وإدراكي أنّي كنتُ أبحثُ عن حصتي من الأرباح أولاً، ها قد اعترفتُ بذلك، يمكنك أنْ تُكمِل كلامك».

الشيخ: «لم يعُدْ لدي ما أقوله، فلقد قلتَ ما يجب أن يُقال. ولكن، هل باعتقادك أنّه كان من الممكن أن تساعدها على الخروج من مأزقها أو أن تفعل الخير هذا بلهفةٍ لو أنّك تفعله متوهّمًا أنه من أجلها فقط؟»

الشاب: «لا، ليس ثمة شيء كان بمقدوره أن يزيد من قوة الحافز الذي سيطر عليّ، والذي عجزتُ عن مقاومته؛ فلقد بلغ حدّه الأقصى».

الشيخ: «ممتاز، ها قد بدأتَ تتشكّك، وكما ألاحظ أنك بدأتَ تعرف أنّ الإنسان يميل إلى الدافع الذي يحثّه على عملٍ ما أكثر من الدافع الذي يحثّه على أيّ عملٍ آخر، فإنْ كان الأول أقوى فهو سيتّبع الدافع الأقوى، سواء أكان خيرًا أم شرًا، وإنْ كان خيرًا فلن يكون بإمكان جميع المغالطات التي يتمسّك بها

أدعياء الحصافة كحجج، إضافةُ ذرّةٍ واحدةٍ إلى قوة الدافع، ولن يكون بمقدورها أيضًا إضافة ذرَّةٍ واحدةٍ إلى الشعور بالرضا الذي يبعثه فيه هذا العمل».

الشاب: «إذًا أنتَ تعتقد أنّ هذا الميل تجاه عمل الخير في نفوس البشر لن يُنقِصه زوال الوهم القائل أنّهم يقومون بمآثر طيبة كَرْمى للآخرين وليس كَرْمى لأنفسهم».

الشيخ: «وهذا هو جلّ إيماني».

الشاب: «ألا يبدو لك أنّ هذه الوصايا تُجرّد عمل الخير من منزلته الرفيعة؟»

الشيخ: «ربما إنْ كان في الزيف منزلةً رفيعة، ولكنّ وصاياي تُلغي كل ما هو زائف».

الشاب: «إنْ كان الأمر كذلك فماذا سيكون عمل دُعاة الأخلاق؟»

الشيخ: «أن يكونوا صريحين في تعليمهم الوصايا؛ اعمل خيرًا كَرْمى لنفسك، ولتبتهج عند إدراكك أنّ ذلك يعود حتمًا بالخير على جارك».

الشاب: «كرّر نصيحتك لو سمحت».

الشيخ: «اجتهد على تهذيب مُثُلك العُليا حتى تسمو وتحافظ على منزلتها في القمة إلى أنْ تبلغ لذّتك القصوى في سلوكٍ يبعثُ فيك الرضا أولاً جازمًا أنّ هذا السلوك في الوقت نفسه يعود بالنفع على جارك ومجتمعك».

الشاب: «هل باعتقادكَ أنّ كل عمل من أعمال الإنسان هو حصيلة مؤثراتٍ خارجية؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: «لو فرضنا أنني عزمتُ على اختلاس ما في عُهدةِ شخصٍ من مالٍ، فتبعًا لرؤيتك أنّي لستُ المخطِّط لهذه الفكرة لكنها جاءتني من الخارج، أليس كذلك؟ فعلى سبيل المثال: أراه يحمل مالاً وهذا يدفعني إلى ارتكاب الجريمة».

الشيخ: «إنّ هذا المؤثر ليس كافيًا بالتأكيد، بل إنّه مجرّد مؤثر خارجي في نهاية سلسلة من المؤثرات التحضيرية التي تمتد لمرحلة قد تبلغ سنوات. إذْ لا يمكن لمؤثرٍ خارجي وحيدٍ أنْ يدفع الإنسان إلى القيام بعملٍ يتعارض مع تدريبه، وكلّ ما يمكّنه فِعْله هو أنْ يُطلِق تفكيره إلى مسارٍ جديد وينفتح لاستقبال مؤثراتٍ جديدة، وكمثالٍ قصة إغناطيوس لويولا([6]). وفي الوقت

...

المناسب ستتمكّن هذه المؤثرات الجديدة من تدريب تفكير الإنسان حتى يخضع للمؤثّر النهائي متأقلمًا مع شخصيته الجديدة.

سأفسّر لكَ الأمر بشكل يوضّح نظريّتي حسب اعتقادي؛ هناك سبيكتان من الذهب الخالص، ولو فرضنا أنّهما تمثلان شخصيّتَين هُذّبتا حتى بلغتا حدّ الكمال الأخلاقي على مدى سنواتٍ من التدريب الصحيح المستمر، ولنفترض أيضًا أنك أردْتَ تحطيم هاتَين الشخصيّتَين المتينتَين، فما المؤثر الذي تُقحِمه في هاتَين السبيكتَين؟»

الشاب: «استنتج هذا بنفسك، أكمِلْ».

الشيخ: «لو فرضنا أني أقحمتُ هاتين السبيكتَين في تيار من بخار الماء خلال ساعاتٍ طويلة متوالية، فهل ينجم عن ذلك شيئًا؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «لماذا؟»

الشاب: «لأنّه لا يمكن لتيار أن يحطم مادة كهذه».

الشيخ: «إنّ تيار البخار مؤثرٌ خارجيٌ ليس له تأثيرٌ لأنّ الذهب لا يتأثر به، فلم يطرأ أي تغيير على هاتَين السبيكتَين. حسنًا، على فرَض أننا أضفنا بعضًا من بخار الزئبق إلى بخار الماء، وأقحمنا هذا التيار الناتج في السبيكة، فهل سيترتّب في هذه الحالة نتيجة فورية؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «إنّ الزئبق هو مؤثرٌ خارجيٌ والذهب (نظرًا لطبيعته المميزة، أو لنَقُل مزاجه وميله) لا يمكنه تجاهل هذا المؤثر، فالزئبق يُثير اهتمام الذهب حتى لو كنا لا نلحظ ذلك، إذْ لا يَنجم ضررٌ عند إقحام المؤثر لمرّةٍ واحدةٍ. لكن لنواظب على إقحام التيار ولنفترض أنّ تأثير كلَّ دقيقةٍ بمثابة سنةٍ، ففي نهاية عشر دقائق أو عشرين دقيقة بمثابة عشر سنين أو عشرين سنة، وهكذا نجد أنّ السبيكة قد تشبّعت بالزئبق وقد زالتْ مزاياها وأُفسِدتْ شخصيتها. وفي نهاية المطاف نجد أنّ هذه الشخصية على استعدادٍ لأنْ تخضع لإغواء ما كانت لتُعيره اهتمامًا منذ عشرٍ أو عشرين سنة. سنُقحِم هذا الإغواء في الشخصية الفاسدة وذلك بأنْ أضغط هذه السبيكة بين أصابعي، أتلاحظ معي النتيجة المترتبة؟»

الشاب: «نعم، لقد تفتَّتت السبيكة إلى أجزاء، بتُّ أفهم الآن أنّه ليس بوسع المؤثر الخارجي الوحيد أنْ يدفع الإنسان إلى القيام بعملٍ يتعارض مع تدريبه، بل مَن يفعل ذلك هو المؤثر الأخير الذي يكون نابعًا عن تراكم طويل ومنحل

لمؤثراتٍ سابقة؛ والآن بتُّ أرى كيف أنّ الدافع الوحيد الذي يحرّضني على اختلاس ما في عُهدة الرجل من مالٍ ليس هو السبب في إقدامي على هذا العمل، بل إنّه الدافع الأخير في سلسلة تحضيرية من الدوافع. ربما يمكنك تفسير ذلك بحكاية رمزية».

حكاية رمزية

الشيخ: «في قديم الزمان كان هناك أخوان توءمان يعيشان في نيو إنجلاند، كانا متشابهَينِ في سلوكهما الجيد ومظهرهما الشخصي وكمالهما الأخلاقي. كما كانا مثالاً يُحتذى به بين زملائهما في مدرسة الآحاد. وفي سن الخامسة أُتيحت الفرصة لجورج لكي يعمل خادمَ ركابٍ في سفينة صيدٍ تُبحِر في وسط المحيط الهادئ، أما أخاه هنري فبقي في منزله في القرية. وفي سن الثامنة عشرة أصبح جورج بحارًا، أما هنري فأصبح معلّمًا لصف متقدّم في مدرسة الأحد. وفي سن الثانية والعشرين اكتسب جورج عادات الشجار وتعاطي الخمر جرّاء حياة البحر الفاسدة على ظهر السفينة وفي نُزُل البحّارة في الموانئ الأوروبية والشرقية، ما جعله عالةً بلا قيمة ولا عملٍ في هونغ كونغ، بينما ترفّع هنري فأصبح مديرًا في مدرسة الأحد، وفي سن السادسة والعشرين كان جورج متسكّعًا ومتشرّدًا، وأصبح هنري قِسًّا في كنيسة القرية. عاد جورج إلى وطنه كضيفٍ عند هنري، وذات ليلة مرّ قرب البيت رجلٌ وغابَ في آخر الزقاق، فقال هنري بابتسامةٍ تعبّر عن شفقة: «على الرغم من أنّ هذا الرجل لا يقصد إزعاجي فإنه لطالما ذكّرني بمرحلة كنتُ فيها فقيرًا للغاية لأنه يمشي وفي عُهدته أكوامًا من المال ويمرّ من هنا في كل ليلة من ليالي حياته». كان هذا المؤثر الخارجي وهذه الملاحظة كافية بالنسبة إلى جورج، لكنها لم تكن وحدها السبب في جعله يتربّص ذلك الرجل ويختلس ماله؛ بل كانت نتيجة لتراكم هذه المؤثرات لإحدى عشرة سنة، وحرّضت هذا التصرف من قبله بعد مرحلة تمهيد طويلة لتلك المؤثرات. لم يخطر في بال هنري أنْ يسلب الرجل ماله فسبيكته عُرّضت للبخار النقي أما سبيكة جورج فعُرّضت لبخار الزئبق».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-5-

المزيد عن الآلة

ملاحظة: عند سؤالك السيدة «و»: كيف تسُول للمليونير نفسه بأن يتبرّع بدولارٍ فقط للكليات والمتاحف بينما يعاني شخصٌ ما الحرمان من لقمة عيشه؟ في سؤالها يكمن الجواب. فشعورها بالفقراء ينمُّ عن معايير الإحسان الخاصة بها، وبذلك فقد اعترفتْ أنّ للمليونير معايير خاصة به هو أيضًا بما أنها تطالبه بتقبّل معاييرها، وهي في هذه الحالة إنما تطالب نفسها بتقبّل معاييره. يُغيِّب الإنسان نفسَه على الدوام عند تفحُّص معايير الآخرين، بينما لا يجد البتة أيًّا منها ليتفحّصها عندما ينظر إلى نفسه».

الآلة من جديد

الشاب: «أتعتقد حقًا أنّ الإنسان محْضَ آلة؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: «وأنّ عقله يعمل بشكل تلقائي من دون أنْ يتحكّم به وتتكون فيه الأفكار بلا عمد؟»

الشيخ: «نعم، العقل يعمل بجدٍّ ومن دون توقف في كل لحظة من لحظات اليقظة. ألَم يسبق لكَ أنْ قضيتَ ليلك تتقلّب في فراشك وأنتَ تتوسّل عقلك وتأمره أن يتوقف عن التفكير لكي تنعَمَ بالنوم؟ وأنتَ الذي تعتقد أنّ عقلكَ خادمك يُطيع أوامركَ، يفكر فيما تأمره أنْ يفكّر فيه، ويمتنع عن التفكير حين تنهيه عنه. وعندما يعزم العمل فليس هناك سبيلٌ لإيقافه لحظة، وإنّ أذكى إنسانٍ لا يمكنه تزويد عقله بالموضوعات إنْ لم تكن تشغله؛ ولو أنّ العقل يحتاج إلى مساعدة الإنسان لانتظر استيقاظه كل صباح كي يقدّم له العمل»

الشاب: «ربما يكون العقل فعلاً في حالة انتظار».

الشيخ: «لا، بل إنّه يبدأ العمل حالاً قبل أن يكون الإنسان قد بلغ مرحلة ما بعد الاستيقاظ التي تسمح له بالاقتراح، وقد يذهب الإنسان للنوم وهو يقول: « سأفكّر لحظة استيقاظي في هذا الموضوع وذاك»، لكنه سوف يفشل؛ لأنّ عقله سوف يسبقه، ففي الوقت الذي يكون فيه صاحيًا تقريبًا وشبه مُدركٍ لما حوله سيجد أنّ عقله مشغولٌ بموضوعٍ آخر. جرّب ذلك وسترى».

الشاب: «على كل حال إنْ صمّم الإنسان حقًا لألزم عقله بمواصلة التفكير في موضوعٍ يشغله».

الشيخ: «لن يتحقق هذا إنْ وجدَ العقل موضوعًا يُرضيه أكثر. واعتبِرها قاعدةً عامة أنّ العقل لن يُصغي إلى الخطيب المُمِلّ ولا إلى الخطيب الذكي، لأنّه يرفض كلّ ما يحرّضه على فكرةٍ ما. فالخطيب الممل يُضجره ويجعله يسرَح في دنيا الأحلام، والخطيب الذكي يبثّ أفكارًا محفِّزة تُثيره فيتعقّبها ناسيًا الخطيب وخطبته. ليس بمقدورك أنْ تمنع عقلك من الشرود إنْ أراد؛ فهو سلطانك وليس أنتْ».

بعد بضعة أيام

الشيخ: «بالكلام عن الأحلام، سنخوض في موضوعها لاحقًا. أما الآن أخبِرني: هل حاولتَ أن تفرض على عقلك انتظار أوامرك وألاّ تتشكّل فيه الأفكار بلا عمد؟»

الشاب: «نعم، أمرْته أن يتهيّأ لتلقّي أوامري عند استيقاظي صباحًا».

الشيخ: «وهل أطاعك؟»

الشاب: «لا، بل بدأ يفكّر في أمرٍ من ابتداعه من دون أن ينتظرني، وكما اقترحتَ سابقًا فإنّي هيَّأتُه لموضوعٍ في المساء كي أبدأ صباحي وأنا أفكّر فيه وأمرتُه أن يبدأ التفكير فيه وليس بسواه».

الشيخ: «وهل أطاعك؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «كم مرّة كرّرتَ التجربة؟»

الشاب: «عشر مرّات».

الشيخ: «وكم مرّة نجحت؟»

الشاب: «لم أنجح في أيٍّ منها».

الشيخ: «إذًا الأمر كما ذكرتُ لكَ سابقًا؛ إنّ العقل مستقلٌّ عن الإنسان، وليس للإنسان سلطانٌ عليه، فهو يفكر فيما يحلُو له. وينتقي موضوعًا ويتشبّث به رغمًا عن صاحبه، ويُلقي به جانبًا رغمًا عن صاحبه أيضًا. إذًا العقل مستقل كليًا عن صاحبه».

الشاب: «تابِع وأرجو أنْ تفسّر لي».

الشيخ: «هل تعرف لعبة الشطرنج؟»

الشاب: «تعلّمتها منذ أسبوع».

الشيخ: «وهل ظلّ عقلك منشغلاً باللعبة طوال الليلة التي تعلمتها فيها؟»

الشاب: «بالله عليك لا تذكّرني بذلك!».

الشيخ: «كان عقلك متلهّفًا في اهتمامه ولا يكتفي، وأحدَثَ حالة من الصخب بين مجموعتَي اللعب؛ أنتَ توسّلت إليه أنْ يتوقّف عن التفكير في اللعبة ويتركك لتأخذ قسطًا من النوم، أليس كذلك؟»

الشاب: «نعم، ولم يُصغِ إليّ بل أكملَ لعبه طوال الليل وهو يُرهقني فاستيقظتُ منهكًا وهزيلاً في الصباح».

الشيخ: «هل سبق وأنْ لازمَتْكَ أغنية مقفّاة بسيطة في بعض الأحيان؟»

الشاب: «نعم بالفِعْل!

رأيتُ (إيسو) يُقبِّل (كيت)

ورأتني (كيت) وأنا أرى (إيسو)

رأيتُ (إيسو) وهو يرى (كيت)

و(كيت) رأتْ... إلخ

وهكذا عَلِقَتْ الأغنية في عقلي وهو مُنتَشٍ بها، يردّدها طوال النهار والليل لمدة أسبوع بعد سماعي بها لأوّل مرّةٍ على الرغم من محاولاتي التي ذهبتْ عبثًا لإيقافه، حتى كدتُ أصاب بالجنون إنْ استمر على هذه الحال».

الشيخ: «وماذا بخصوص الأغنية الشعبية الجديدة؟»

الشاب: «آه، أجل! كأغنية (إني أقرُب المحبوبة...). هذه الأغنية الشعبية بلحنها الأخّاذ ظلّت تطنّ في عقلي طوال ليلي ونهاري، وفي صحوتي ومنامي، حتى أرداني الأرق منهكًا، فلا سبيل ليتخلّص عقلي من التفكير فيها».

الشيخ: «أجل هذا يُثبِتُ ما قلته لك أنّ العقل مستقلّ تمامًا في أثناء نومك ويقظتك، فهو سلطانك وليس بمقدورك التحكم به أو إملاء عمل عليه، إنّه مستقلٌّ عنك إلى الحد الذي يتدبّر شؤونه بنفسه، ويواصل ترديد الأغاني التي تحلو له، ويمارس لعبة الشطرنج بنفسه، وينسج أحلامه المتشابكة والمبتكرة في أثناء نومك، أي أنّه ليس بحاجة إلى مساعدتك أو توجيهك، سواء أكنتَ نائمًا أم صاحيًا، لقد تخيّلتَ أنَّ بوسعك ابتكار فكرة في عقلك واعتقدتَ حقًا أنَّ باستطاعتك ذلك».

الشاب: «أجل، كنتُ أعتقد ذلك».

الشيخ: «ومع ذلك لا يمكنك ابتداع فكرة الحلم لتشغل عقلك بها، أليس كذلك؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «وليس في استطاعتك أنْ تُملي عليه أمرًا بعد أن ابتدع فكرة الحلم بنفسه، أليس كذلك؟»

الشاب: «لا، هذا ليس في استطاعتي ولا في استطاعة أي أحد. باعتقادك هل العقل الصاحي والعقل الحالم هما الآلة ذاتها؟»

الشيخ: «هنالك برهانٌ على ذلك، ففي صحوتنا نسرح في أفكار خيالية وجامحة، أفكارٍ أشبه بالأحلام».

الشاب: «أجل، وكمثالٍ قصة مستر ويلز الرجل الذي اخترع دواء يمكِّنه من التخفّي، وكالقصص العربية ألف ليلة وليلة».

الشيخ: «وأحيانًا تكون الأحلام منطقية وبسيطة وغير خيالية».

الشاب: «أجل، فأحلامي شبيهةٌ بما تقول، وتكاد تكون شبيهة جدًا بالواقع، أحلامٌ تتعدد فيها الشخصيات وتتنوع صفاتهم، وجميعهم من نسج عقلي حتى أني لا أعرفهم وأستغربهم، فمنهم القاسي والمهذّب، والحكيم والأحمق، والفظّ والعاطفي اللطيف، والمشاكس والمُسالِم، والعجوز والشاب، والفتيات الفاتنات والدميمات. وكل منهم يتكلّم تبعًا لشخصيته ويتحفّظ لطبعه الخاص.. فقد أرى في أحلامي عراكًا حادًا، أو إهاناتٍ لاذعة، أو تعابير مُفعمة بالحب، أو حوادث مأساوية أو مضحكة، أو بليّة تعتصر قلبك، أو أقوال وأفعال تُثير ضحكك؛ إنّ الأحلام فعلاً تكاد تكون شبيهة بالواقع تمَام الشبه».

الشيخ: «أتقصد من كلامك أنّ عقلك الحالم يكوّن مادّة الحُلم ويفصّلها ببراعة واتّساق، ثم يقود سلسلة أحداثها المثيرة وكل ذلك دون الرجوع إليك؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «إذًا إنّ ذلك يُبرهِن أنّ باستطاعته أنْ يفكر فيما يشاء في أثناء يقظته دون مساعدتك أو إيحاء من طرفك، وبالنسبة إليّ هذا اعتقادي. كما يُثبِتُ ذلك أيضًا أنّ عقل اليقظة وعقل الحُلم هما العقل الخبير ذاته الذي لا يحتاج إلى مرجعيَّتك. باعتقادي أنّ العقل محض آلة، آلة مستقلة كليًّا وبشكل تلقائي. هل أجريتَ التجربة الأخرى التي اقترحتها عليك؟»

الشاب: «أيّ تجربة؟»

الشيخ: «التجربة التي تحدّد مدى تأثيرك على عقلك (إنْ كان لديكَ تأثير في الأساس)».

الشاب: «أجل لقد أجريتُها وشعرتُ بشيء من التسلية. لقد قمتُ بما أمرتني به؛ فوضعتُ أمام عينيّ موضوعَين أحدهما مملّ يعوزه حسّ التشويق، والآخر يفيض تشويقًا، ثم أمرتُ عقلي أنْ ينشغل بالموضوع الممل».

الشيخ: «وهل أطاعك؟»

الشاب: «لا، بل انشغل بالموضوع الآخر».

الشيخ: «وهل عملتَ كل ما بوِسعك لكي تُجبِره على إطاعتك؟»

الشاب: «نعم، لقد بذلتُ قُصارى جهدي».

الشيخ: «وما الموضوع الذي امتنع عقلك عن التفكير فيه؟»

الشاب: «كان هذا السؤال؛ إنْ فرضنا أنّ (أ) تدين بدولارٍ ونصف دولار إلى (ب)، و(ب) تدين بدولارَين وثلاثة أرباع دولار إلى (ج)، وأنَّ (ج) تدين بخمسة وثلاثين سنتًا إلى (أ)، وأنّ (د، أ) يدين كل منهما إلى (هـ، ب) بـ... لا أذكر بقية الموضوع حاليًا، لكنّ الأمر برمّته يُفضي إلى الملل، وعجزتُ عن إجبار عقلي على التفكير في مِثل هذه التّرهات أكثر من نصف دقيقة في كل مرة؛ فكان يثابِر على القفز إلى الموضوع الآخر من تلقاء نفسه».

الشيخ: «وماذا كان الموضوع الآخر؟»

الشاب: «أرجو تغيير موضوعنا الحالي».

الشيخ: «لكني أودّ معرفة الموضوع؟»

الشاب: «صورة».

الشيخ: «صورتك؟»

الشاب: «لا، بل صورتها».

الشيخ: «لقد أجريتَ اختبارًا جيدًا بالفِعل، وهل قمتَ بتجربة أخرى؟»

الشاب: «نعم، أمرتُ عقلي أن ينشغل بإعلانٍ جاء في جريدة الصباح عن أسعار لحم الخنازير، وفي الوقت ذاته ذكّرته بتجربة قاسيتُها منذ ستة عشر عامًا، فامتنع عن التفكير بالتقرير وحَصَرَ جلّ اهتمامه بالحادث القديم».

الشيخ: «وماذا كان ذلك الحادث؟»

الشاب: «صفعني مجرمٌ مسلّح على وجهي بحضور عشرين شخصًا، وكلما تبادر المشهد إلى ذهني أستشيطُ غضبًا».

الشيخ: «كلا الاختبارين جيد جدًا، وهل جرّبتَ اقتراحي الآخر؟»

الشاب: «التجربة التي تُثبِتُ لي أنني لو أطلقتُ العنان لعقلي سوف يجد موضوعًا ليفكر فيه من دون الرجوع إليّ، وبذلك يقنعني بأنه آلة تلقائية توجّهها مؤثرات خارجية، آلة مستقلة عني بأقصى قدرتها لو كانت في جمجمة شخصٍ آخر؟ هل تقصد هذه التجربة؟»

الشيخ: «نعم».

الشاب: «لقد جربتها وأنا أحلق ذقني بعد أنْ حظيتُ بنومٍ هانئ وكان عقلي متحفّزًا للغاية وجَذِلاً. أثارتْ عواطفه ذكرى جميلة في مرحلة طفولتي البعيدة وَمَضَتْ فجأة في ذاكرتي، وما أثارها هو رؤيتي هرّة صفراءَ تخطّ طريقها بتؤدةٍ على حافة سور الحديقة، كان لونها كفيلاً بأن تعود بي الذاكرة إلى صورة هرّة الطفولة التي رأيتها تمشي على طول السلم الجانبي لمنبر الوعظ، ثم تقفز إلى حيث يوجد لوحٌ لزِجٌ لصيد الذباب، فتَعلق قوائمها بالمصيدة؛ رأيتها تقاوِم وتسقط عاجزةً مستاءة، وكلما قاومت أكثر زادت خيبة أملها ثم تبادرتْ صورة المصلين الخاشعين إلى ذاكرتي وهم يرتجفون ودموعهم تنهمر، رأيتُ هذا كله، ولكنّ مشهد الدموع جعل عقلي يسرَح بمشهد أكثر حزنًا حدث في جزيرة تييرا دلفويجو كما شهدتُها بعينَي داروين، وهناك رأيتُ عملاقًا عاريًا يدفع بابنه الصغير من فوق الصخور عقابًا على سببٍ تافه، ثم رأيتُ امرأةً مسكينة تجمع أشلاء ابنها المحتضر وتضمه إلى صدرها وتبكي من دون أن تنبس ببنت شفة. هل توقف عقلي طويلاً في بكائه على حال تلك الأم العارية السوداء، شقيقتي في الإنسانية؟ لا، بل كان منشغلاً عن ذلك المشهد بتذكّر حلم مزعجٍ يراوِدني في بعض الأحيان، وتفاصيل هذا الحلم أني أرى نفسي عاريًا أتنقّل وسط جَمْعٍ في صالون واسع من الرجال والسيدات الأنيقين، وأنا أتساءل ما الذي أتى بي هناك؟ ومزيد من التفاصيل الأخرى، صورةً بعد صورة، وحادثًا بعد حادث. مشهد حيّ تنهال تفاصيله المتغيرة على ذهني، ولا يزال عقلي يؤلفها من دون الرجوع إلي. قد يكلّفني الأمر ساعتَين بين جمْع وتشتيت الأشياء التي صوّرها ذهني في ربع ساعة، ناهيك عن وصفها لك».

الشيخ: «حين يُترك عقل الإنسان حرًا فلا حاجة إلى مساعدة صاحبه، ولكن هناك طريقة تمكّن الإنسان من نَيْل مساعدة عقله إنْ أراد».

الشاب: «وما هذه الطريقة؟»

الشيخ: «عندما تتوارد الأفكار في عقلك بسرعة واحدة تلو الأخرى فتبرق من بينها فكرة ملهمة، كل ما عليك فِعْله هو فتح فمك والتحدث عنها أو أنْ تستهلّ قلمك لتدوّن ذلك، إنّ هذا الأسلوب سيُثير اهتمام عقلك بالفكرة وسوف يركّز عليها فيستمرّ راضيًا، بعد ذلك سوف يتولّى عقلك المسؤولية ويزوّدك بالكلمات المناسبة لتعبِّر عن الفكرة».

الشاب: «لكن ألستُ أنا الذي أفرض عليه ما يقول؟»

الشيخ: «بلا شك أنّ هناك حالات لا تجد فيها متّسعًا من الوقت، فتنزلق الكلمات قبل أنْ تعرف ما أنتَ قادمٌ عليه».

الشاب: «أعطني مثالاً».

الشيخ: «حسنًا، خُذ على سبيل المثال (الفكاهة) أو سرعة البديهة التي تصدر بسرعة، فليس هناك من وقتٍ لترتيب ألفاظها أو لمجرّد التفكير فيها مليًّا. حيثما تصادِف فُكاهة فستجد أنّها تلقائية في أدائها وليست بحاجة إلى مساعدة، وحيثما تصادِف شخصًا يفتقد سرعة الخاطر فستجد أنّ القراءة المكثّفة والتأمل لن يفيداه في شيء».

الشاب: «هل باعتقادك حقًا أنّ الإنسان لا يبتدع أو يخلق شيئًا؟!»

عملية التفكير

الشيخ: «نعم أعتقد ذلك، فالإنسان يُدرك شعوريًا، وآلته العقلية تجمَع بشكل تلقائي بين المدرَكات، وهذا كل ما في الأمر».

الشاب: «وماذا عن القاطرة البخارية كمثال؟»

الشيخ: «استغرق اختراعها مئة سنة بجهود خمسين رجلاً، وعندما نقول اختراع كأنّنا نقول اكتشاف، واستخدامي كلمة «اختراع» يُقصَد به اكتشاف. اجتهد هؤلاء المخترعون بالتدريج في اكتشاف وتطبيق شتى التفاصيل التي تساهم في اختراع آلة مثالية. وكان من بينهم وات الذي لاحظ أنّ البخار المُحتبِس كان قويًا بما فيه الكفاية لرفع غطاء إبريق الشاي. هو لم يبتكر الفكرة بل اكتشفها فحسب، وربما قد لاحظت هرّته هذا الأمر قبله مئات المرات. وألهمَتْه فكرة غلاّية الشاي حتى طوَّرها إلى أسطوانة، وطوّر غطاء الإبريق إلى أنْ أصبح مكبسًا. وكان إجراءً بسيطًا أنْ يوصل المكبس بشيء يتحرّك وفقًا له أي ذراع التدوير... ثم عجلة، إلى أنْ توصّل إلى المحرّك البخاري([7]).

وهكذا توالى المكتشفون وأدخلوا تحسيناتهم، كما كانوا يستخدمون عيونهم دون استخدام قوة الخَلق لديهم لأنّهم لا يملكونها، والآن بعد مُضِي مئة سنة

نرى الكثير من التحسينات التي أدخلها خمسون أو مئة مكتشفٍ مندمجة في الآلة المدهشة التي تدفع سفينة ركاب محيطية».

الشاب: «وماذا بخصوص مسرحية من مسرحيات شكسبير؟»

الشيخ: «لا يختلف الأمر هنا أيضًا. فالممثل الرئيس في مسرحياته متوحّش، استنسخه في رقصاته الحربية المسرحية ورقصات النصر وغيرها من الأمور التي شهِدها في الحياة الواقعية. تقدّمت المدنية فأنتجت حوادث أكثر وارتباطاتٍ أكثر استعارها الممثل والقصّاص. وهكذا تقدمت المسرحية بالتدريج وهي تستقي أحداثها من الواقع، أي أنها ليس ابتكارًا. استغرقت المسرحيات اليونانية قرونًا حتى تطورت، فاستعارت من العصور السابقة وأمدّت العصور اللاحقة. حاصل قولي إنّ الإنسان يُدرِك ويربط هذا كل ما في الأمر، وفي مقدور الفأر أن يفعل الأمر ذاته».

الشاب: «كيف ذلك؟»

الشيخ: « يُدرك الفأر رائحةً تدلُّه أنّها قطعةٌ من الجُبن يبحث عنها فيجدها، ويدُرِك الفلكيّ شيئًا هنا وشيئًا هناك، ويضيف هذه الاكتشافات الجديدة إلى اكتشافات مئات الفلكيين ممن سبقوه، ويستنبط من هذه الإضافة والربط بوجود كوكب غير مرئي يبحث عنه فيجده. ويَعلَق الفأر في المصيدة فيحاول الخروج في آخر الأمر، حينها يستنتج بعد تجربته أنّ قطعة الجُبن تفقد قيمتها في المصايد، فيمتنع عن الاقتراب من المصايد على الإطلاق. الفلكي فخور للغاية بإنجازه، والفأر فخور باستنتاجه أيضًا. ومع ذلك كلاهما آلة أدّت عملها الآلي دون أن يبتدعا شيئًا ولا يحق لهما الفخر حتى، فالفضلُ كله يعود فقط إلى خالقهما، وليس من حقهما التقلُّد بألقاب الشرف أو المديح أو الأضرحة أو الذكرى، فأحدهما آلة معقّدة ومفصّلة في تكوينها، والآخر آلة بسيطة ومحدودة، لكنهما متماثلتان من حيث المبدأ والوظيفة والعملية ولا يعملان إلاّ بطريقة تلقائية، وليس لأحدهما الحق في الادّعاء بأنه لديه تفوُّق شخصي أو منزلة تفوق الآخر».

الشاب: «هل تودي به الحال بعد مجهوده في اكتساب المنزلة الرفيعة والقيمة الشخصية إلى أنْ يوضع على الكفة الموازية للفأر؟»

الشيخ: «تقصد شقيقه الفأر، أجل هذا ما يبدو لي. ليس لأحدهما الحق في التمتع بأي قيمة شخصية تتبَع أعماله، كما أنه ليس لأحدهما الحق في التباهي (ولو بينه وبين نفسه) بتفوُّقه على أخيه».

الشاب: «هل أنتَ عازمٌ على أن تظلّ مؤمنًا بهذه الحماقات؟ وهل ستحافظ على إيمانك هذا في مواجهة الحجج القوية المدعومة بالأمثلة والحقائق

مجتمعةً؟»

الشيخ: «ما كنتُ إلاّ باحثًا متواضعًا جادًا ومخلصًا في السعي وراء الحقيقة».

الشاب: «وماذا أيضًا؟»

الشيخ: «إنّ الباحث المتواضع الجاد المخلص في السعي وراء الحقيقة قابل لتغيير معتقداته إنْ كانت الحجج القوية مقنعة».

الشاب: «الحمد لله أني سمعتُك تقول هذا، لأني أعلم أنّ تغير عقيدتك...»

الشيخ: «على رسلك، لقد أسأتَ فهمي. لقد قلت إنني (كنتُ) أسعى وراء الحقيقة».

الشاب: «والآن؟»

الشيخ: «لم أعُد كذلك، هل نسيت ما قلتُه لك؟ أخبرتك بأنه لا يوجد سوى الباحثين المؤقتين، لأنّه ليس للإنسان قدرة على البحث الدائم؛ إذ إنّ الإنسان حالما يجدُ ما يقنعه في أثناء مسار بحثه عن الحقيقة لا يُكمل بحثه، بل يقضي بقية عمره في اصطياد الخردة يرمّم ويسد بها الفجوات ويدعمها كي تبقى شراعه صامدةً في وجه الأعاصير فلا تنهار. ومن هنا يظلّ المشيخي مخلصًا لمذهبه، والروحاني مخلصًا لروحانياته، والديمقراطي مخلصًا لمبدئه، والجمهوري مخلصًا لسياسته، أي أنّ الباحثين المؤقتين يتوصّلون إلى حقيقة ويتمسّكون بها.

وإنْ كان الباحث المتواضع الجاد والمخلص في سعيه وراء الحقيقة قد توصّل في مسار رحلته البحثية إلى الاعتقاد بأنّ القمر مكوّن من الجبن الأخضر فليس هناك من قوة تُزعزع اعتقاده، لأنّه وبكلّ بساطةٍ ليس سوى آلة تعمل بشكل تلقائي وعليها الامتثال لقوانين تكوينها».

الشاب: «وإذًا...»

الشيخ: «أعتقدُ أنك توصّلت إلى الحقيقة ولاحظتَها، وهي أنّ الإنسان ليس له إلاّ دافعٌ واحدٌ يحرّكه وهو دافع إرضاء ذاته، وأنّه محْض آلة، ولا يحق له التفاخر بأي قيمةٍ شخصيةٍ لأي عمل يقوم به، فمن المستحيل بالنسبة إلي كإنسان أنْ أواصل بحثي بعد وصولي إلى الحقيقة. وسوف أقضي البقية من عمري في ترميم وصوغ عقيدتي العزيزة عليّ، بينما أرنو في الاتجاه المعاكِس كلما قُدِّمت حجة مقنعة أو حقيقة مدمّرة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-6-

الغريزة والتفكير

الشاب: «هذا الأمر كريه للغاية، فنظرياتك المترنّحة التي قدّمتها منذ لحظة فيما يتعلّق بالفأر وكل تلك الأمور الأخرى، تُجرِّد الإنسان من ثياب الكرامة والعظمة والمهابة».

الشيخ: «ليس لديه ثيابٌ حتى يتجرّد منها، بل إنّها ثياب مسروقة ومحض أكاذيب ليس إلاّ. فهو ينسبها إلى نفسه بينما هي تعود إلى خالقه فحسب».

الشاب: «لكن لا يحق لك أن تضع الإنسان على الكفة الموازية للفأر».

الشيخ: «لم أقصد الناحية الأخلاقية، لأن ذلك لا يُنصِف الفأر فهو يتفوّق على الإنسان بجدارة من هذه الناحية».

الشاب: «هل هذه فكاهة؟»

الشيخ: «لا ليست كذلك».

الشاب: «إذًا ماذا تقصد؟»

الشيخ: «هذه الفكرة تدخل حيّز الإحساس الخلقي، وهو موضوع كبير. دعنا نُنهي ما نحن بصدده الآن قبل أن نتطرّق إلى هذا الموضوع».

الشاب: «حسنًا، لقد بدا لي أنكَ تُقِرُّ بوضع الإنسان على الكفة الموازية مع الفأر. أتقصد من الناحية الفكرية؟»

الشيخ: «أجل في الشكل وليس في الدرجة».

الشاب: «وضّح».

الشيخ: «باعتقادي أنّ عقل الفأر وعقل الإنسان هما الآلة ذاتها بقدرات غير متساوية، كالفرق بين عقلك وعقل إديسون، أو الفرق بين عقل قزم إفريقي وعقل هومر، أو الفرق بين عقل حطّاب وعقل بسمارك».

الشاب: «كيف توصَّلتَ إلى هذا التفسير وأنتَ تعلم أنّ الحيوانات الدنيا ليست لديها قدرات عقلية سوى الغريزة، بينما الإنسان يتمتّع بالعقل؟»

الشيخ: «وما الغريزة؟»

الشاب: «إنها تطبيق تلقائي غير واعٍ لعادة موروثة».

الشيخ: «وكيف نشأتِ العادة؟»

الشاب: «بدأ بها الحيوان الأول ثم ورثتها سليلته».

الشيخ: وكيف توصّل إليها هذا الحيوان الأول؟»

الشاب: «لا أعلم، لكنه لم يفكر فيها».

الشيخ: «وكيف عرفتَ أنّه لم يفكر فيها؟»

الشاب: «يحقّ لي افتراض أنّه لم يفعل ذلك».

الشيخ: «أنا لا أعتقد أنّ لديك الحق. ما التفكير؟»

الشاب: «أعلم ما هو تعريفك للتفكير.. هو تجميع انطباعات المؤثرات الخارجية بشكل تلقائي ثم التوصّل إلى استنتاج من خلالها».

الشيخ: «جيد. أما الآن فتعريفي بلفظة لا معنى لها وهي (غريزة)؛ إنّها مجرد فكرة متحجّرة كوّنتها العادة بشكل مترسّخ وفاقد للحيوية، كانت في وقتٍ من الأوقات فكرةً يقِظة وحيَّة، لكنها أصبحت فكرة لا شعورية، كما لو أنّها تسير في أثناء نومها إن صح القول».

الشاب: «فسّر كلامك».

الشيخ: «خُذ -على سبيل المثال- قطيعًا من البقر يرعى الأعشاب في مرعى. ورؤوسهم كلّها متجهة في اتجاه واحد. إنّها تفعل ذلك بُحكم الغريزة، إذْ إنّ حركتها هذه لا تُفيدها في شيء وليس هناك ما يدعوها إلى ذلك حتى أنها لا تعلم لمَاذا تقوم بهذا التصرف. هي عادة موروثة أصلها فكرة -أو إنْ صحّ القول- هي مراقبة لحقيقة خارجية تبِعها استنتاج قيّم استُخلِص من تلك المراقبة ثم دعمته التجربة. لاحظَ مثلاً الثور البري القديم أنّه بمساعدة الريح يمكنه أن يشمّ ليعرف إنْ كانت المسافة تسمح له بالفرار، فاستنتج أنّه من الأفضل إبقاء أنفه في مهبّ الريح، وهذه هي العملية التي يدعوها الإنسان بـ «التفكير». وآلة التفكير عند الإنسان تعمل بالطريقة ذاتها التي تعمل بها نظيرتها عند الحيوانات، ولكنها أفضل. فلو كان الإنسان في مكان الثور لذهب إلى حدّ أبعد ولفكّر بشكل أشمل؛ لكان سيجعل جزءًا من القطيع يُدير وجهه في الاتجاه المعاكِس، وبذلك يكون قد حمى المقدمة والمؤخرة معًا».

الشاب: «هل قلتَ إنّ لفظة (الغريزة) لا معنى لها؟»

الشيخ: «وأعتقد أيضًا أنها لفظة زائفة تُربكنا، فهي وبما يشبه القاعدة تنطبق على عادات ودوافع ذات أصول بعيدة كوّنها التفكير، وتكسر هذه القاعدة بين الحين والآخر بأنْ تنطبق على عادات من الصعب معرفة أصول فكرتها».

الشاب: «أعطني مثالاً».

الشيخ: «حسنًا. عندما يرتدي الإنسان السروال فهو دائمًا يبدأ بإدخال الساق المعتادة أولاً وليس الأخرى. إنه لا يستفيد شيئًا من هذا التصرف ولا معنى له. حيث أنّ البشر جميعهم يفعلون ذلك حتى أنّ جميعهم لم يُعِر بالاً لهذا الأمر -حسبما أعتقد- لكن في حاصل القول إنها ليست سوى عادة منقولة بالتأكيد ولن تتوقف عن الانتقال بتعاقب الأجيال».

الشاب: «هل يمكنك أن تُبرهن وجود هذه العادة؟»

الشيخ: «إنْ لم تكن واثقًا، بإمكانك أنتَ أنْ تُبرهن على ذلك إذا اصطحبتَ شخصًا إلى متجر الملابس وراقبتَه وهو يجرب دستة سراويل حينها ستُدرك صحّة ما أقول».

الشاب: «ولكنّ مثال البقر ليس...»

الشيخ: «ليس كافيًا لبرهان أنّ الآلة العقلية عند حيوانٍ أبكم هي نفسها عند الإنسان وأنّهما متشابهان في عملية التفكير أيضًا؟ سأفسّر ذلك بشكلٍ أدق: إذا أعطيتَ السيد إديسون صندوقًا واتّبعتَ طريقة لفتحه فجأة بأداةٍ خفية فإنّ إديسون سوف يستنتج أنّ هناك زنبرك، حينها سوف يبحث عنه ويجده

سنقارن بين المثال السابق وهذه القصة: كان لعمّي حصان عجوز اعتادَ أنْ يدخل في مخزن الحبوب المقفل ليسرق الذرة، وكنتُ أتحمل العقوبة على الدوام لأنّ عمي كان يظنّ أني أهملتُ وضْع الوتد الخشبي في مكانه من الباب لإقفاله. ضُقْتُ ذرعًا من هذه العقوبات المتكررة التي جعلتني أستنتج وجود متّهمٍ في مكانٍ ما، ولذلك أخفيتُ نفسي وراقبتُ الباب، ولم يمضِ قليلٌ من الوقتِ حتى أتى الحصان وسحَبَ الوتد بأسنانه ودخل. لم يُعلّمه أحدَ ذلك، فقد راقبَ واستنتج الحيلة بنفسه. لم تختلف عمليته العقلية عن نظيرتها عند إديسون، فلقد جمع المعطيات واستنتج. أما عن الوتد فقد ضربتُ الحصان بقسوةٍ لفِعْلته».

الشاب: «يبدو من هذه القصة أنها تحتاج إلى التفكير. ومع ذلك ما زال الأمر غير واضح ومعقد، فسّر لي أكثر».

الشيخ: «على فرَض أنّ السيد إديسون قد حظِي بضيافة عند شخصٍ ما، وأنه عاد إلى المنزل مرارًا بعد فترة فوجده خاليًا.. عندها يستنتج أنّ مضيفه قد انتقل إلى منزلٍ آخر. ولو فرضنا أنه بعد فترة من الزمن وفي مدينة أخرى رأى الرجل يدخل منزلاً فيستنتج أنه منزله الجديد فيتبع الرجل ليستفسر منه.

أما الآن سأطرح مثالاً عن تجربة نورس كما رواها عالم طبيعة. تدور أحداث القصة في قرية ساحلية للصيادين في إسكتلندا يتعاملون فيها مع طيور النورس بوَداعة. والنورس الذي سنتكلم عنه زار كوخ أحد الصيادين فأطعمه.

عاد في اليوم التالي فأطعمه مجددًا، وفي اليوم الذي يليه دخل الكوخ وتناول الطعام مع عائلة الصياد، واستمر على هذه الحال يوميًا. ولكن ذاتَ يومٍ غابَ النورس في رحلةٍ لبضعة أيام عاد بعدها فوجد المنزل خاليًا؛ كان ساكنوه قد انتقلوا إلى قريةٍ قريبةٍ تبعد عن سكنهم السابق ثلاثة أميال. وبعد سبعة أشهُر رأى النورس ربَّ العائلة يسير في إحدى طرق القرية فتبِعه إلى منزله، ودخل المنزل بلا استئذان فأصبح ضيفًا دائمًا لديهم.

وطيور النورس كما تعلم لا تتمتع بالكفاءة العقلية، ولكن نورس قصتنا يتمتع بذاكرة وبملكة عقلية، وقد استخدم هاتَين الملكتَين كما فعل إديسون».

الشاب: «لكنه لم يكن إديسون ولن يكون بإمكانه أنْ يتساوى معه».

الشيخ: «ربما لم يكن بإمكانه. وهل أمكنك أنتَ؟»

الشاب: «لكني لم أقصد. استمر».

الشيخ: «لو تورّط إديسون في مشكلة وانتشله منها رجلٌ غريب ثم عاود الوقوع فيها في اليوم التالي لكان استنتج أنّ أحكم تصرّف كان يمكن أن يتخّذه في هذه الحالة هو معرفة عنوان الرجل الغريب. سأقصّ لك قصة تدور أحداثها بين طائر ورجل غريب كما قصّها عالم طبيعة: رأى رجل إنجليزي طائرًا يحوم حول رأس كلبه الجاثم على الأرض، ويئنّ في أثناء طيرانه أنين المتألّم، فذهب الرجل إلى حيث يجثم كلبه ليرى ما يجري هناك، فرأى الكلب ممسكًا طائرًا صغيرًا بفمه ولا يزال سليمًا، فانتزعه الرجل من فم الكلب ووضعه على شجيرة وأبعد الكلب عنه. وفي ساعةٍ مبكّرة من صباح اليوم التالي أتت أمّ الطائر وهي تحوم حول الرجل النبيل الذي كان جالسًا على شُرفةِ منزله، وبعد مناورات كثيرة اقتنع الرجل باتباع مسار طيرانها إلى مكان بعيدٍ في الأراضي، كانت تسبقه بمسافةٍ قصيرة ثم تنتظره ريثما يلحق بها، وهكذا، بل وكانت تتبع مسارًا متعرِّجًا بدلاً من الطيران في طُرقٍ مختصَرة عبر الحقول الخضراء. بلغتْ المسافة التي قطعها الرجل أربعمئة ياردة. كان المتّهم في هذه الحالة هو الكلب نفسه وكان الطائر الصغير في فمه ومن جديد انتزعه الرجل من فمه.

وكأنّ أمّ الطائر فكّرت واستنتجت من الأمر كله الآتي: بما أنّ الرجل ساعده مرةً فهو مستعدٌ لمساعدته مرةً أخرى، كانت الأم تعلَم أين تجده فبدأت مهمّتها بثقة. كانت عملياتها العقلية هي نفس نظيرتها عند إديسون. ربطت الأحداث معًا من هنا وهناك- وهذا كل ما تنطوي عليه عملية التفكير- وبناءً على هذا الربط استنتجت قضايا منطقية توصّلت إليها بالاستنباط. وما كان باستطاعة إديسون أن يقوم بعملٍ أفضل من ذلك».

الشاب: «هل باعتقادك أنّ كثيرًا من الحيوانات البكماء يمكنها أنْ تفكّر؟»

الشيخ: «نعم، الفيل والقرد والحصان والكلب والببغاء وغيرها الكثير. فالفيل الذي هوَتْ زوجته في حفرة فأغرق الحفرة بالفضلات والقمامة حتى ارتفع قاعها إلى الحد الكافي الذي يمكّن زوجته من الخروج، هذا الفيل يتمتّع بالقدرة على التفكير، وإني أعتقد أنّ جميع الحيوانات التي يمكنها تعلّم الأمور بوساطة التعليم والتدريب لا بدّ لها أن تعرف كيف تراقب وتربط المعطيات لتخلُص بنتيجة، وهذه هي عملية التفكير.

هل بإمكانك أنْ تعلِّم الأبله كيف يستعمل الأسلحة وكيف يتقدّم ويتراجع ويقوم بمناوراتٍ عسكريةٍ معقدةٍ عند صدور الأمر إليه بذلك؟»

الشاب: «ليس إنْ كان الأبله متبلّدًا للغاية».

الشيخ: «حسنًا، طيور الكناري يمكنها أن تفعل ذلك. والكلاب والفِيَلة تتعلّم الكثير من الأمور المذهلة. لا بدّ أنها تتمتع بملكة الملاحظة وربط الأمور ببعضها البعض، فتقول لنفسها: «لقد فهمتُ الأمر الآن. حين أفعل هكذا وهكذا كما أُمِرْتُ فسأحظى بالمدح والطعام، وحين أفعل خلاف الأمر الصادر إليّ... فسأُعاقَب. يمكن تعليم البراغيث كل شيء تقريبًا يمكن لعضو كونجرس أنْ يتعلّمه»

الشاب: «على فرض تسليمنا بأنّ الحيوانات البكماء يمكنها أنْ تفكر في مستوى سفلي، فهل يوجد بينها ما يمكنه أنْ يفكر في مستوى عالٍ؟ هل من بينها ما يصعد إلى مرتبة تقرَب إلى أن توازي الإنسان؟»

الشيخ: «نعم، فالنملة في عملية التفكير والتخطيط توازي أي جنس من الأجناس البشرية البدائية؛ والنملة كمتخصصة في نيْل المعرفة وفي الكثير من المهارات تفُوق الكثير من أجناس البشر البدائية، فامتلاكها مهارة أو اثنتَين من المهارات العقلية العالية يجعلها تفُوق مستوى البشر سواء أكانوا متمدِّنين أم همجًا»

الشاب: «تمهّل! بكلامكَ هذا تُلغي حدود العقل التي تفصل بين الإنسان والحيوان».

الشيخ: «أستميحك عذرًا. لا يمكن للمرء إلغاء ما لا وجود له».

الشاب: «آمل أنكَ لستَ جادًا فيما تقول. لا أظنكّ تقصد إنكار وجود مثل هذه الحدود».

الشيخ: «بل أنا جادّ تمامًا. فأمثلة الحصان والنورس وأم الطائر والفيل تبيِّن كيف تربط هذه المخلوقات جميع المعطيات من هنا وهناك ثم تستنبط منها

نتيجة بذات الطريقة التي كان سيتبعها إديسون لو كان مكانهم. فالآلة العقلية لديهم تُشابِه نظيرتها لديه في آلية عملها. وأداة التفكير عند هذه الحيوانات لا تختلف عن نظيرتها عند الإنسان إلا ما لا يُذكَر أي ليست هناك حدود تفصل بين عقلَيهما».

الشاب: «إنّ كلامك صحيح للغاية إلى حدِّ الإهانة من شدّة وضوحه. فهو يرفع من شأن الحيوانات البكماء إلى... إلى...»

الشيخ: «دعنا نتخلّى عن هذا الوصف الكاذب، ولندعوهم بالمخلوقات التي لم تُكتشف بعد، وبقدر ما نستطيع نهْله من المعرفة، ليس هناك وجودٌ لشيء يُسمى بحيوان أبكم».

الشاب: «وعلى أيّ أساس يرتكز إصرارك؟»

الشيخ: «على أساس بسيط للغاية. فعبارة حيوان (أبكم) توحي بفكرة حيوان تعوزه آلية التفكير والفهم، وطريقة التخاطب أو التعبير عما يجول في ذهنه. نعلم أنّ الدجاجة لا تعوزها طريقة التخاطب، لا يمكننا أنْ نفهم كل ما تقوله ولكن لن يصعب علينا تعلّم جملة أو اثنتَين مما تقوله. نفهمها حين تقول (لقد وضعتُ بيضة)؛ ونفهمها حين تقول لأفراخها (اقتربوا يا صغاري لقد وجدتُ دودة)؛ ونفهمها حين تصيح محذِّرةً (أسرعوا! هيا! اجتمعوا واختبئوا تحت أجنحة أمّكم، فهناك صقرٌ يقترب!)، كما نفهم الهرّة حين تتمدد وتخرخر بحنوٍّ وطمأنينة ثم ترفع صوتها بنداء خفيف (هلمّوا يا صغاري فالعشاء أصبح جاهزًا)، ونفهمها حين تجول مفجوعةً (أين يمكن أن يكونوا؟ إنهم ضائعون بلاشك. ألن تساعدني في البحث عنهم؟). ونفهم أيضًا ما المغزى من تجوالِ قطٍّ قد غادر مخبأه في منتصف الليل (يا نتاج سلالة فاسقة، إنْ تجرّأتم على الاقتراب فسأبدّد فراءكم هذا!). ولن يصعب علينا فهم بعض العبارات التي يقولها كلب، أو نتعلّم أيضًا بعضًا من إشارات وحركات أي طائر أو حيوانٍ آخر عند مراقبته أو ترويضه. كما أنّ دقة ووضوح بعض عبارات الدجاجة التي يتيسّر لنا فهمها لهي برهانٌ على قدرتها على التواصل مع بنات جنسها بمئات الأفكار التي لا يتيسّر لنا فهمها- حاصل القول: إنّ بإمكانها التخاطب. وهذا البرهان يسري في حالة غيرها من الجيش الغفير من (المخلوقات التي لم تُكتشف).

وليس من الغرابة أنْ تصل الصفاقة والتكبّر عند الإنسان بأنْ يُطلِق صفة بكماء على الحيوانات وذلك فقط لضحالة ملاحظاته في أنْ يعرف القدرات الكامنة عند هذه المخلوقات. والآن لنعُد إلى النملة».

الشاب: «أجل دعنا نعود إلى النملة تلك المخلوقة التي على ما يبدو ستجعلها البرهان الذي يُزيل الحد العقلي بين الإنسان والحيوان».

الشيخ: «وهذا هو ما تفعله النملة بالتأكيد. فمثلاً ليس في تاريخ سكان أستراليا الأوائل مَن خطر في باله فكرة بناء بيت يسكنه، بينما النملة مهندسٌ بارعٌ، فهي مخلوقٌ صغيرٌ للغاية لكنها مع ذلك تبني بيتًا قويًا وصامدًا بارتفاع ثمانية أقدام، بيتًا ضخمًا بالقياس إلى حجمها الصغير كأضخم مبنى برلمان أو كاتدرائية في العالم بالمقارنة مع حجم الإنسان. ولم يحدث يومًا أنْ ظهر بين الشعوب البدائية مهندسون تمكّنوا من مجاراة النملة في عبقريتها ومعرفتها، ولم يحدث أيضًا أنْ ظهر بين الشعوب المتمدِّنة مهندسون تمكّنوا من تصميم بيتٍ يسدّ الحاجات التي بُني لأجلها كما تسدّ بيوت النمل حاجاته. فبيوت النمل تحوي غرفة العرش، وحضانة لصغارها، ومخازن للحبوب، وحجراتٍ لجنودها وعمّالها... وقد وُزّعت ونُظمت هذه الحجرات والقاعات والدهاليز المتعدِّدة التي تصل بينها بدقّة وبراعة بهدف ملاءمتها للسكن وللتعديل».

الشاب: «يمكن أن يكون هذا كله مجرّد غريزة».

الشيخ: «لكانت هذه الغريزة سترفع من شأن الإنسان البدائي لو امتلكها. لكن دعْنا نبحث في أعماق الأمر أكثر قبل أنْ نقرر. إنّ للنمل جنودًا تنظمهم كتائب وجيوش وأفواج، ولديهم قوّاد مجهّزين لقيادة المعركة».

الشاب: «يمكن أن يكون هذا كله مجرّد غريزة أيضًا».

الشيخ: «سنواصل بحْثنا بشكل أعمق؛ إنّ للنملة نظامًا للحكم؛ وهو نظام مخطّط له بعناية كما أنه دقيق ويحافظ على سير العمل بنجاح».

الشاب: «إنها الغريزة مجددًا».

الشيخ: «ضف إلى ذلك أنّ للنمل حشودًا من العبيد تستغلّها بشكل ظالم وشاق في أعمال السخرة».

الشاب: «غريزة».

الشيخ: «وللنمل أبقارها، وهي تحلب هذه الأبقار».

الشاب: «غريزة بلا شك».

الشيخ: «يوجد في ولاية تكساس نوع من النمل ينسق مزرعة مربّعة بطول اثني عشر قدمًا، فيزرعها ويزيل العشب الضار النابت فيها ويحرثها ثم يجمع المحصول ويخزّنه في مكانٍ مخصّصٍ له».

-الشاب: «الأمر ذاته في كل ما قلته، إنّها الغريزة».

الشيخ: «تميِّز النملة بين الصديق والدخيل. وكما مثال تجربة السيد جون لوبوك الذي أخذ نملاً من خليّتَين مختلفتَين وسقاهم شرابًا مُسكرًا حتى ثملوا،

وأصبحوا غائبين عن الوعي بفِعل الخمر، فوضعهم بجوار إحدى الخليّتَين قرب بركة ماء صغيرة. وما كان مِن نمل الخلية إلا أنْ خرجت من خليّتها وعاينتْ الحالة المُزرية لهذه المخلوقات البائسة، ما فعلته حينها هو أنْ حملتْ أصدقاءها إلى داخل الخلية ورمَتْ بالدُّخلاء في بركة الماء. عاوَدَ السيد جون لوبوك التجربة مرارًا، وفي كل مرة كان النمل الجادّ يُعيد التصرف السابق فيحمل الأصدقاء إلى داخل الخلية ويرمي بالدُّخلاء، إلى أنْ ضاق ذرعًا في نهاية المطاف حين وجدَ أنّ جهوده لتسوية حال النمل الثَّمِل ذهبتْ سُدىً فأصبح يرمى بالأصدقاء والدخلاء معًا في الماء.

هيا أخبرني هل سلوك النمل الجاد هو محْض غريزة أم أنه دراسة ذكية وتنمّ عن تفكيرٍ عميق بشيء جديد كل الجِدّة بالنسبة إلى تجربتهم كجماعة، لقد توصّلوا إلى قرار، ومن القرار إلى إصدار حُكم، ومن الحُكم إلى التنفيذ. هل هذه غريزة؟ هل هي أفكار تحجّرت عبر عهودٍ من التكرار حتى أصبحت عادة، أم أنها أفكار جديدة أثارتها ظروف وأحداث جديدة؟»

الشاب: «لا يسعني قول شيء بعدُ سوى أني سلّمتُ بقولك. فعمل جماعة النمل غير ناتجٍ عن التكرار، بل ينمّ عن التفكير فقط، وربط المعطيات من هنا وهناك بهدف التوصّل إلى نتيجة كما أسلفتَ. أعتقد أنّ سلوكها كان تفكيرًا».

الشيخ: «سوف أعطيك مثالاً آخر عن التفكير: وضع فرانكلين فنجانًا من السكر فوق طاولة في غرفته. استطاع النمل الوصول إلى السكر وبدأ بأكله، جرّب فرانكلين العديد من الإجراءاتِ الوقائية، ولكنّ النمل أحبط كل محاولاته. ما دفعه إلى رسم خطة كحَلٍّ أخيرٍ وهي سدّ مسارات النمل نحو السكر، وذلك بوضع أرجل الطاولة في أوانٍ ممتلئة بالماء، وربما لجأ بعدها إلى سَكْب قطران حول فنجان السكر إنْ لم تخُنّي ذاكرتي؛ وعلى كل حال أخذ فرانكلين يراقب ردّ فعل النمل الذي التفّ عدة التفافات -فشِل في معظمها- ما جعله يتشتّت ويرتبك، فلم يجد النمل حلاً سوى أنْ يعقد جلسة مشاورة يدرس فيها المشكلة إلى أنْ توصّل إلى قرار، وفي هذه النقطة ينافس فيلسوفًا عظيمًا؛ فقد شكّل النمل مسارًا على الأرضية وتسلّق الحائط ثم شقّ طريقه إلى السقف حتى وصل إلى النقطة التي تعلو الفنجان، فأخذ كل فرد منهم يتهاوى بدوره نحو قعْر الفنجان! هل هذه غريزة أيضًا - بحُكم أفكار تحجّرت عبر عهودٍ من التكرار حتى أصبحت عادة؟»

الشاب: «لا، لا أعتقد أنّها كذلك. بل أعتقد أنّ ردّ فعل النمل كان حيلة جديدة استنتجها ليواجه مشكلة جديدة اعترضته».

الشيخ: «حسنًا. لقد أقرّيتَ بوجود ملكة الاستنتاج في هذَين المثالين. أما الآن فسأتطرّق إلى تفصيلٍ عن مقدرةٍ عقليةٍ تضع النمل في مرتبةٍ تفوق أيّ كائنٍ

بشري بمراحل عدة. برهَنَ السيد جون لوبوك بعد عدّة تجارب أنّ النملة تميِّز نملةً دخيلةً على خليّتها في الحال حتى لو كانت من جنسها أو حتى متنكّرة أو ملونة (إذ لجأ إلى تلوينها). كما أثبتَ أيضًا أنّ النملة قادرة على معرفة كل فردٍ من خليتها المكونة من خمسمئة ألف فرد ولو بعد غياب سنة ستتعرّف عليه وستُبدي له الترحيب الحارّ والمحبّ. كيف أمكنها التعرّف بهذه السهولة؟ لم يكن للون دورٌ؛ إذ لم يُجدِ نفعًا تلوين النملة بل تعرّف عليها أفراد الخلية حالاً. ولم يستفِدْ فرانكلين شيئًا عند غمسه النملة في الكلوروفورم، بل أيضًا تم التعرّف عليها. حتى أنّ الحديث وحركات قرون الاستشعار لا أهمية لها فالنمل يتعرّف على السكارى من أفراد خليّته في الحال على الرغم من عجزهم عن الحركة، كما ميّزوا الصديق من الدخيل. إنّ النمل بأكمله من نفس الجنس، وتمييز الصديق يكون بالشكل والملامح من بين خمسمئة ألف فردٍ في الخلية الواحدة! فهل بمقدور أي إنسان التذكر بهذا الشكل؟»

الشاب: «لا، بلا شكّ».

الشيخ: «إنّ تجربة كل من فرانكلين ولوبوك تبيّن القدرات المبهرة للنمل والتي تفوق فيها أيّ كائن بشري في ربطها المعطيات معًا والخروج بنتائج صحيحة وذكية بعد وقوعها في مأزق جديدة لم يسبق لها الوقوع فيها، وهذه بالضبط هي عملية التفكير عند الإنسان. وبمساعدة الذاكرة يحتفظ الإنسان بملاحظاته واستنتاجاته فيفكّر فيها مليًّا ويُضيف إليها ويجمعها، وهكذا يتقدّم مرحلةً تلو الأخرى إلى أنْ يخرج بنتائج متباعدة، بدءًا من غلاية الشاي إلى المحرّك البخاري الذي تسير من خلاله باخرة محيطية؛ من الجهد الشخصي إلى عمل السخرة؛ من الأكواخ إلى القصور؛ من الصيد الموسمي إلى الزراعة والغذاء المخزون، من حياة البداوة إلى الحكومة المستقرة ذات السلطة المركزية، من الحشد المتشتِّت إلى الجيوش المتكتِّلة.

وللنمل ملكتَي الملاحظة والاستنتاج وبمساعدة الذاكرة المذهلة التي لديه يحفظ ويجمع، وعلى ذلك فنظام حياته يطابق التقدم البشري والمواصفات الضرورية لمدنية الإنسان، وبعد كل ما قلتُه تسمّيها غريزة!».

الشاب: «ربما أنا مَن تعوزني ملكة التفكير».

الشيخ: «إذًا لا تقُل ذلك لأحد، ولا تكرر خطأك».

الشاب: «لقد خُضنا في أعماق هذا الموضوع، وأستنتج من نقاشنا -حسبما فهمت- رغبتك في أنْ أُقِرّ بعدم وجود حدود عقلية تفصل الإنسان عن المخلوقات التي لم تُكتشف».

الشيخ: «هذا صحيح، فليس هناك مثل هذه الحدود، وليس ثمة طريقة للالتفاف على الموضوع حتى. يتمتّع الإنسان بآلية عقلية أجود وأكفأ مما يتمتع به غيره من الحيوانات، ولكن تكوينها مشابِه وتعمل بطريقة مماثلة، وليس بإمكان الإنسان ولا الحيوان أن يقود هذه الآلية، فعملها تلقائي لا يُقاد، تعمل عندما يحلو لها، ولا يمكن أنْ تفرض عليها عملاً إنْ لم ترغب هي في ذلك».

الشاب: «إذًا فالبشر والحيوانات سواسية في الآلية العقلية، وليس ثمة مِن فارقٍ بينهما، إلا من حيث الدرجة وليس من حيث النوع».

الشيخ: «أوشكتَ على فهم المسألة من الناحية العقلانية. وهناك الكثير من نواحي النقص في كلا الجانبَين، فعلى سبيل المثال ليس بمقدورنا نحن البشر فهْم الكثير من لغتهم، بينما الكلب والفيل و ... يتعلّمون قدرًا كبيرًا من لغتنا. فالحيوانات إذًا تفوقنا من هذه الناحية، أما من ناحية أخرى فلا يمكنهم تعلُّم الكتابة والقراءة و... و ... وغيرها من الأمور العُليا عند الإنسان كالعقلية أو الجسدية، وبهذه الحالة انفردَ الإنسان عن غيره من الكائنات».

الشاب: «حسنًا إذًا، دَعْ كلاً منا يحتفي بما لديه، ولكن سيظلّ هناك حاجزٌ قائمٌ وعالٍ. فعلى سبيل المقارنة: الحيوانات لا تنعم بالحس الأخلاقي على خلاف الإنسان الذي ينعم به وهذا ما يجعله يتميّز ويتفوّق عليها إلى حدٍّ منقطع النظير»

الشيخ: «ما الذي دفعك إلى قول ذلك؟»

الشاب: «تمهّل أرجوك، وليتوقّف نقاشنا هنا عند هذه المحطة؛ فلقد احتملتُ الكثير من الحماقات والكلام الفارغ بما فيه الكفاية، ولكني لن أضع الإنسان والحيوانات الأخرى في نفس المستوى الأخلاقي».

الشيخ: «ولكني لم أكن في وارِد رفْع مستوى الإنسان الأخلاقي إلى هذا الحد».

الشاب: «لقد بالغتَ كثيرًا! أظنّ أنّ مزاحك غير مقبول في أمورٍ كهذه».

الشيخ: «ولكني لا أمزح، أنا أذكرُ حقيقةً بسيطةً فحسب بدون موارَبَة. أجل لا جدال أنّ ما يُثبِت تفوّق الإنسان العقلي على بقية المخلوقات هو تفريقه بين الخير والشر، لكن مجرّد احتمالية ارتكابه الشر يُثبِتُ نقيصته الأخلاقية عن بقية المخلوقات التي لا تعجز عن ارتكاب الشر. إنَّ موقفي من هذا الموضوع ليس عرضةً للنقاش».

الإرادة الحرّة

الشاب: «ما وجهة نظرك فيما يخص الإرادة الحرّة؟»

الشيخ: «رأيي أنه ليس ثمة شيء بهذا الاسم. هل امتلكها ذلك الرجل الذي أحسَنَ للمرأة العجوز بآخر شَلَنٍ في جيبه ومشى مُجهَدًا في العاصفة؟»

الشاب: «كان أمام خيارَين، فإما مساعدة العجوز أو تركها تُقاسي الألم. أليس الأمر على هذا النحو؟»

الشيخ: «نعم، كان لديه خياران، وهما إما الراحة الجسدية من ناحية وإما الراحة الروحية من ناحيةٍ أخرى. كانت مناشَدة الجسد قويةً بالطبع، لكنّ الروح قامت بنداء مُضادّ. فقد كان الخياران محصورَين بين هذَين النداءَين، وقد اختار. قُل لي الآن: مَن الذي قرَّر، أو ما الذي قرّر ذلك الاختيار؟»

الشاب: «أي شخصٍ فيما عداك، سيقول إنّ الرجل هو الذي قرَّر ذلك الاختيار، وبذلك يكون قد استخدم إرادته الحرّة».

الشيخ: «إننا على ثقة تامة على الدوام بأنّ كلّ إنسان يتمتّع بالإرادة الحرة وأنّ باستطاعته ومن واجبه أن يستخدمها عندما يُخيَّرُ بين سلوكٍ طيّب وسلوكٍ أقل طيبة، مع أننا رأيْنا بوضوح في قصة ذلك الرجل افتقاده للإرادة الحرة على الإطلاق؛ فمزاجه وتدريبه والمؤثرات اليومية التي كوّنته وجعلت منه هذا الشخص الذي عرفناه، تكاتفتْ جميعها وأجبرتْه على تخليص المرأة العجوز، وبهذه الحالة يكون قد ضَمِن خلاص نفسه، خلاص نفسه من ألمٍ روحيٍّ، ومن بُؤسٍ لا يُحتمَل. هو لم يختَر بنفسه، بل أُجبِر على الاختيار بفِعْلٍ قويً لا يمكن إخضاعها. إذًا وجود الإرادة الحرّة لطالما كان يقتصر عليها كلفظة فحسب ولا تتجاوز حدّ اللفظة، وباعتقادي لا وجود لها في الواقع. وأنا لا أستخدم مثل هذا التعبير -إرادة حرة- بل ألجأ إلى غيره».

الشاب: «وما التعبير الآخر؟»

الشيخ: «الاختيار الحُر».

الشاب: «وما الفرق بينهما؟»

الشيخ: «أحدهما ينطوي على سلطة غير مقيّدة تتيح لك أنْ تعمل ما يحلو لك، أما الأخرى فليست سوى عملية عقلية وهي القدرة الحاسمة بين تصرّفَين، لتقرِّر أيهما أقرب إلى الحق والعدل».

الشاب: «أرجو أن توضّح لي الفارق أكثر».

الشيخ: «بإمكان العقل أن يختار وينقد بحُرِّية، وأنْ يُبيِّن أيُّ التصرّفَين ينطوي على الحق والعدل، ولكن مهمّته تقتصر على هذا العمل، ولا يمكنه أنْ يذهب إلى أبعد من ذلك. فليست لديه سلطة لفرض اتباع التصرف الذي ينطوي

على الحق وإلغاء الذي ينطوي على الباطل. لأنّ هذه السلطة محكومة مِن قِبَل غيره».

الشاب: «مِن قِبَل الإنسان؟»

الشيخ: «بل مِن قِبَل الآلة التي تحلّ محلّه، مِن قِبَل الميل الفطري والشخصية التي تكوّنت على أساس هذ الميل بالتدريب والبيئة».

الشاب: «وهل ستَميل هذه السلطة نحو التصرف العادل؟»

الشيخ: «لا بل هي تعمل ما يحلو لها. فعلى سبيل المثال الآلة العقلية عند جورج واشنطن([8]) كانت ستميل نحو التصرف العادل، أما الآلة العقلية عند بيزارو([9]) فستميل نحو التصرف الباطل».

الشاب: «إذًا أفهم من هذا كله أنّ الآلة العقلية عند إنسانٍ شرير تبيّن بهدوء ونزاهة أيّ التصرّفَين أقرب إلى الحق والعدل».

الشيخ: «أجل. وآلته الأخلاقية سوف تختار بحُرية هذا التصرف أو ذاك وفقًا لتكوينها، فتضع ما يحسه العقل على الحياد فيما يخص هذه المسألة، هذا إنْ كان للعقل إحساسات. فالعقل هنا ليس إلا ترمومتر يسجّل الحرارة والبرودة ولا يعنيه ضآلة الدرجة في كليهما».

الشاب: «إذًا لا يجب علينا الادّعاء بأنّ الإنسان الذي يعرف أيّ التصرفَين على حق يجد نفسه مُلزَمًا باتباعه؟»

الشيخ: «مَن يقرر اتباع هذا التصرف هما مزاجه وتدريبه ولسوف يتّبعه؛ فليس باستطاعته أن يقرّر ذلك بنفسه؛ إذْ لا سُلطةَ له حيال هذا الموضوع. أكان من الصواب أن يخرج نبيُّ الله داود ليقتل جوليات؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «إذًا من منظورك هذا يؤدي إلى صواب أي عمل مشابه يحتذي به أي شخص آخر؟»

الشاب: «بلا شك».

الشيخ: «ولربما كان من الصواب أيضًا أن يحتذي هذا العمل شخصٌ جبانٌ بالفِطرة؟»

الشاب: «أجل».

الشيخ: «أجزمُ أنك تعلم أنه ما مِن جبانٍ بالفِطرة كان ليحاول القيام بمثل هذه المحاولة. أليس كذلك؟»

الشاب: «بلى».

الشيخ: «أتعلِمُ أيضًا أنّ تكوين ومزاج جبانٍ بالفِطرة سوف يكونان عائقًا ثابتًا لا يمكن تخطّيه في وجه أي محاولةٍ من هذا النوع، أليس كذلك؟»

الشاب: «بلى، أعلم».

الشيخ: «ألم يُدرِك بوضوح أنّه لَمِن الصواب أنْ يحاول ما فعله داود؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «ألا يتمتّع عقله بحُرية الاختيار حين يقرّر صواب المحاولة؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «إذًا فلو تسبّبَ جُبنه الفطري بِعَدم قُدرته على المحاولة، فماذا سيَحِلّ بإرادته الحُرّة؟ وأين هذه الإرادة الحرّة؟ ولمَ ندّعي أنه يتمتع بإرادة حرة بينما تُثبِتُ الوقائع المجردة عكس ذلك؟ ولمَ نُقنِع أنفسنا أنه لا بدّ سيفعل ما فعله داود لأنه رأى الحق كما رآه؟ ولمَ نفرض القوانين ذاتها على كل من الماعز والأسد؟» الشاب: «هل مغزى كلامك أنّك تُنكر وجود قوة اسمها الإرادة الحرّة؟» الشيخ: «هذا هو ما أعتقده، هناك إرادة لكن لا تأثير لها على الإدراك العقلي عند تفريقه بين الصواب والخطأ كما أنها ليست تحت سيطرة هذا الإدراك. فمزاج نبي الله داود وتدريبه صدرت عنهما إرادة لم تكن سوى قوة إلزامية، وكان عليه أن يمتثل لقراراتها، فلم يكن يتمتّع بحرية الاختيار. أما مزاج الجبان وتدريبه تصدر عنهما إرادة أخرى وهي ليست سوى قوة إلزامية أيضًا تأمره باجتناب الخطر فيمتثل لأمرها لأنه غير حرٍّ باختياره، ولكن نبيّ الله داود (الشجاع) والرجل الجبان لا يتمتّعان بالإرادة الحرة التي تتبع إما الحق وإما الباطل وفقًا لقرارات أحكامهم العقلية».

قيمتان! بل قيمة واحدة لا غير

الشاب: «هناك أمرٌ ما يُثير حيرتي؛ ألا وهو أني حتى الآن لا أستطيع أنْ أميّز أين وضْعتَ حدًّا فاصلاً بين الأطماع المادية والأطماع الروحية».

الشيخ: «أنا لا أضع حدودًا».

الشاب: «ماذا تقصد؟»

الشيخ: «ليس هناك من شيء يُدعى بالأطماع المادية، بل الأطماع جميعها روحية بلا استثناء».

الشاب: «هل تقصد أنَّ التمنيات والرغبات والمطامح جميعها هي أطماع روحية وليست مادية؟»

الشيخ: «نعم، فهذا ما يطلبه السلطان (الضمير) الذي يُسيطر على كيانك وكل ما عليك هو إرضاؤه فقط؛ إذْ إنه لا يطالبكَ بشيء ولا يُقحم نفسه في أيّ موضوع آخر».

الشاب: «بالله عليك! إذًا عندما يطمع بمال غيره؛ أليس ذلك طمعًا ماديًا بشكلٍ جليٍّ بل فاضحٍ؟»

الشيخ: «لا، ليس المال أكثر من رمزٍ فهو يعبّر بشكل ملموس ومرئي عن رغبةٍ روحيةٍ. وكل أمرٍ مما تدعوه أنتَ المادة إنْ رغبتَ فيه فأنتَ ترغب في مجرد رمزٍ؛ وترغب فيه ليس لذاته بل لأنه سوف يُرضي روحك مؤقتًا».

الشاب: «أرجو أنْ تخوض في تفاصيل توضيحية».

الشيخ: «لكَ هذا. فمثلاً الشيء الذي رغبتَ فيه هو قبّعة جديدة، وحصلتَ على مُرادك فأرضيتَ روحك. ولكن لو فرضنا أنّ أصدقاءك سَخِروا من القبعة حينها ستفقد قيمتها في الحال، وتصبح مصدر خجلٍ بالنسبة إليك، فتُبقيها بعيدةً عن ناظريك لفقدانك رغبتك فيها كليًا».

الشاب: «أظنني فهمتُ، أكمِلْ».

الشيخ: «هل تغيرتْ القبعة؟ أليست هي نفسها؟ طبعًا لم تتغير. إذًا أنتَ لم ترغب في القبعة كمادة بل رغبتَ فيما ترمز إليه، رغبتَ في شيءٍ يُرضي ويسرّ روحك. وبعد فشل القبعة في ذلك الإرضاء فقدتْ قيمتها بالكامل. إذًا ليست هناك قِيَم مادية بل قيم روحية فقط، وإنّ بحثك عن قِيَمٍ مادية سيكون بلا جدوى، فلا تُتعب نفسك في البحث عن شيء غير موجودٍ أساسًا. وإنْ كان لشيءٍ ما قيمة فهي قيمة روحية لا غير، فإنْ أزلتَها أصبح عديم القيمة بالنسبة إليك- كما في مثال القبعة».

الشاب: «هل يمكن أن يشمل كلامك المال أيضًا؟»

الشيخ: «نعم، إنّ المال ليس سوى رمز وليس لديه أي قيمة مادية. أنتَ تخالُ أنك ترغب في المال ذاته ولكن الأمر على خلاف ذلك، لأنك ترغب فيه لإرضاء روحك، والذي يمدُّك به، وإنْ فشل المال في تحقيق هذا الرضا سيفقد قيمته حتمًا وفي الحال

سأقصُّ لك قصةً مُحزنة عن رجل يعمل كالعبيد، يكدح ويُجهِد نفسه لكي يجمع ثروة طمعًا بالمال ولم يكن يكتفي، إلى أنْ تمكَّن من تحقيق مناله ما جعله منتشيًا من السعادة، إلى أن فتكَ ببلدته وباءٌ جعله وحيدًا بائسًا، لقد فقد أحباءه بعد أسبوعٍ من انتشار هذا الوباء؛ انقضت قيمة المال في نظره بعد هذه الحادثة الأليمة التي مرّ بها، ما جعله يُدرك أنّ سعادته لم تكن جرّاء المال

نفسه بل من الرضا الروحي الذي حصل عليه عند رؤيته الفرح الذي نَعِمت به عائلته لتوفر الملذات والأشياء المُبهجة بسبب البذخ والوفرة.

العِبرة من ذلك أنّ المال لا قيمة مادية له، فإنِ استبعدتَ قيمته الروحية أصبح مثله مثل القمامة، وهذا ينطبق على كل الأشياء المادية من دون استثناءات مهما كبُرت أم صغُرت، عظيمة كانت أم زهيدة، فالتيجان والصولجانات والبنسات والمجوهرات الزائفة والشهرة في نطاق القرية والشهرة العالمية، جميعها بلا قيمة مادية على حد سواء، متى حققتْ لكَ الرضا الروحي فهي قيّمة في نظرك، ومتى فشلتْ في تحقيق هذا الإرضاء فقدتْ قيمتها».

سؤال صعب

الشاب: «لقد جعلتني أتوه وأنشغل في غمار تعابيرك المزخرفة. فأنتَ أحيانًا تعمل على تصنيف الإنسان إلى شخصيتَين أو ثلاث ولكل منها سلطاتها وأحكامها ومسؤولياتها، وحين تتبع هذا الأسلوب يصعبُ عليّ الاستيعاب. أما إنْ تحدثتُ أنا عن الإنسان فهو اجتماع كل شيء في شيء، وهذا الشيء الشامل سهل التأمل والفهم».

الشيخ: «لو كان كلامك صائبًا لكانت فكرة لطيفة ومناسبة. حسنًا عندما تذكر في سبيل حديثك كلمة (جسدي)، فإلى مَن تعود الياء في نهاية الكلمة؟»

الشاب: «تعود إليّ أنا».

الشيخ: «فالجسد إذًا ملكية، وياء المتكلم (أنا) هي التي تملكه. حسنًا مَن هي هذه (الأنا)؟»

الشاب: «(الأنا) هي الشاملة؛ إنها ملكية عامة غير مقسَّمة وتُلازم كيانك بأكمله».

الشيخ: «لو أنّ (الأنا) أُعجبتْ بقوس قزح، فهل (الأنا) الشاملة تُعجب به أيضًا بما تتضمَّنه من الشَّعر واليدين والكعبين؟»

الشاب: «لا بالتأكيد. لأنّ عقلي هو الذي يُعجَب به».

الشيخ: «في هذه الحالة أنتَ تقسّم (الأنا) بنفسك. وكل إنسانٍ يفعل ذلك، بل ولا بدّ عليه فِعْلُ ذلك. إذًا، ما ماهية هذه (الأنا) بالضبط؟»

الشاب: «باعتقادي أنّه لا بدّ من تقسيمها على قسمين: العقل والجسد».

الشيخ: «حقًا؟ لو قلتَ (أنا أعتقد أنّ الأرض كروية الشكل) فإلى مَن تعود هذه (الأنا) التي تتحدث؟»

الشاب: «إلى العقل».

الشيخ: «ولو قلتَ (أنا حزين لفقد والدي) إلى مَن تعود هذه (الأنا) هنا؟»

الشاب: «العقل».

الشيخ: «هل يمارس العقل وظيفةً عقليةً حين يختبر ويقبل الدليل على أنّ الأرض كروية الشكل؟»

الشاب: «نعم».

الشيخ: «وهل يمارس وظيفة عقلية حين يحزن لفقد والدك؟»

الشاب: «لا هذا لا يدخل في نطاق التفكير والعمل العقلي، بل إنّها مسألة شعور لا غير».

الشيخ: «إذًا فمصدر هذه الوظيفة ليس في عقلك بل في مجالك الأخلاقي».

الشاب: «أوافقك في كلامك».

الشيخ: «هل عقلك جزء من وجودك المادي؟»

الشاب: «لا، بل مستقل عنه لأنّ العقل روحيّ».

الشيخ: «بما أنّ العقل روحي، فلن يكون بمقدوره التأثُّر بالمؤثرات المادية، أليس كذلك؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «هل يظلّ العقل صاحيًا بينما الجسد ثملاً؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «إذًا، فهناك أثرٌ للمؤثِّر الجسدي المادي؟»

الشاب: «هكذا يتّضح لي».

الشيخ: «قد ينجم عن كسرٍ في الجمجمة خلل عقلي. فما المغزى من حدوث ذلك إنْ كان العقل روحيًا ومستقلاً عن المؤثرات الجسدية المادية؟»

الشاب: « في الحقيقة لا أملك إجابة».

الشيخ: «كيف تعلم أنّ قدمك تؤلمك؟»

الشاب: «أشعر بالألم».

الشيخ: «لكنك لا تشعر به حين تُبلِغ الأعصاب الدماغ بالألم. والدماغ مقرّ العقل، أليس كذلك؟»

الشاب: «أظنّ ذلك».

الشيخ: «لكنه ليس روحيًا إلى الحدّ الذي يجعله يعلم بما يدور خارج مجاله من دون مساعدة رسول جسدي. حينها تلاحظ أنّ السؤال عن ماهية (الأنا) ليس أمرًا سهلاً على الإطلاق. فأنتَ تقول: (أنا أُعجَب بقوس قزح)، أو (أنا أعتقد أنّ الأرض كروية الشكل)، وفي كلتا الحالتَين نجدُ أنّ (الأنا) ليست المتحدّث، بل مَن يتحدّث هو الجزء العقلي منها. فمثلاً أنتَ تقول: (أنا حزين)، وفي هذه الحالة (الأنا) لا تتحدث بكاملها، بل المتحدّث هو الجزء الأخلاقي منها

حسبما تقول إنّ العقل روحيٌّ بالمطلق، ثم أردفتَ (أنا متألِّم) ستلاحظ أنّ (الأنا) هنا تجمع بين الجزء الروحي والعقلي، فجميعنا نستخدم (الأنا) بهذا الأسلوب المُبهَم، ولا سبيل لنا غيره. فنتخيّل وجود سيد أو ملك محكوم من قِبَل ما تدعوه أنتَ بالشيء الشامل ونعبّر عنه بالـ (أنا)، لكن عندما نحاول أن نعرِّف عنه نجد أنفسنا عاجزين عن قول ذلك.

يستطيع كل من المشاعر والعقل التصرّف بشكل مستقل عن الآخر؛ ندرك ذلك فيشغلنا البحث عن حاكمٍ يكون سيدًا على كل منهما، وأنْ يعبِّر عن الـ (أنا) المحدَّدة بشكل مؤكَّد، ويمكِّننا من معرفة ماذا نقصد أو مَن وعمّن نتكلم حين نُشير إلى أنفسنا بهذا الضمير (أنا)، لكن في النهاية أَعيانا البحث فاضطررنا إلى التوقف معترفين بعدم قدرتنا على معرفة هذا الحاكم. بالنسبة إلي أرى أنّ الإنسان آلة مشغولة من آليات متعددة، وكل آلية تقوم بعملها الأخلاقي والعقلي بشكل تلقائي وفقًا لدوافع يفرضها سلطان باطني ينشأ تبعًا للمزاج الفطري وتراكم نتائج المؤثرات الخارجية والتدريبات المتعددة؛ الإنسان آلة مهمتها الوحيدة هي ضمان الرضا لذلك السلطان الباطني سواء أكانت رغباته تنطوي على الخير أم الشر، آلة لا بدّ أن تُطاع إرادتها المطلقة دائمًا وأبدًا».

الشاب: «ربما كانت الـ (أنا) هي الروح؟»

الشيخ: «ربما. ولكن، ما الروح؟»

الشاب: «لا أعلم».

الشيخ: «ولا أحد يعلم أيضًا».

النزعة الحاكمة

الشاب: «ما السلطان؟ أو لنقُل التعبير الشائع: ما الضمير؟ أرجو أن توضِّح لي».

الشيخ: «إنه الحاكم المُطلَق الخفي في كيان الإنسان، والذي يُخضِعه لإرضاء رغباته، يمكن أن نُطلق عليه النزعة الحاكمة أي التوق لإرضاء الذات».

الشاب: «وأين مركز هذه النزعة؟»

الشيخ: «في بُنية الإنسان الأخلاقية».

الشاب: «وهل تنحو أوامرها نحو منفعة الإنسان؟»

الشيخ: «هذا آخر ما تُبالي به، فلا يشغلها شيء سوى إرضاء رغباتها. لكن يمكن تدريبها لتفضّل الأمور التي تصبُّ في مصلحة الإنسان، فإنْ نجحتْ في ذلك فهذا فقط لأنّ هذه الأمور تُرضيها أكثر مما يُرضيها أي أمرٍ آخر».

الشاب: «أفهم من كلامك أنها حتى لو دُرّبت على الاقتداء بمُثُلٍ عُليا، فبحثها عن رضاها يبقى أولى أولويّاتها، بَدَل بحثها عن مصلحة الإنسان الذي يحتوي عليها».

الشيخ: «تمامًا، وسواء دُرّبت أم لا، فمصلحة الإنسان لا تعنيها في شيءٍ، ولن يشغلها الأمر برمّته».

الشاب: «يبدو لي أنّها قوة لا أخلاقية تتركّز في بُنية الإنسان الأخلاقية».

الشيخ: «أجل، إنها تتركّز في بُنية الإنسان الأخلاقية، لكنها ليست لا أخلاقية بل عديمة اللون، لنُطلِق عليها غريزة- غريزة عمياء، غير استنتاجية، لا تُميّز بين الأخلاق الحميدة والمعايير السيئة، لا تُبالي بالنتائج التي تُصادف الإنسان، شريطة أنْ تضمن بها الرضا الذي تُنشده على الدوام».

الشاب: «هي تبحث عن المال، ربما تعتقد أنّ في ذلك منفعة للإنسان؟»

الشيخ: «لكنها لا تواصل البحث عن المال، ولا عن القوة، ولا عن المنصب، ولا عن أي منفعةٍ ماديةٍ أخرى. فهي دائمة البحث في كل الحالات عن الرضا الروحي مهما كانت الوسائل التي تُفضي إليه. فمزاج الإنسان الفطري هو مَن يحدِّد رغباتها، وهو حاكمها. وفي الحقيقة إنّ كلاً من المزاج والضمير والعاطفة والحاجة الروحية على حدٍّ سواء. هل سبق لك أنْ سمعتَ عن شخصٍ لا يعنيه المال البتة؟»

الشاب: «نعم. سمعتُ أنّ عالِمًا رفض مغادرة حُجرته وكُتُبه ليشغل منصبًا في دور عملٍ بمُرتّبٍ عالٍ».

الشيخ: «كان عليه أنْ يُرضي النزعة الحاكمة -إنْ صحّ القول- مزاجه وحاجته الروحية التي فضّلتْ الكتب على المال. هل لديك حالات أخرى؟»

الشاب: «نعم، حالة الناسك».

الشيخ: «يا له من مثال جيد. حسنًا، الناسك كما نعلم يتحمّل الوحدة والجوع والبرد ومَخاطر عدة لإرضاء ذلك الحاكم المُطلَق، الذي يفضّل الصلاة والتصوُّف على المال أو أيّ شيء يمكن أنْ يشتريه المال من عزٍّ وترف. هل لديك حالاتٍ أخرى؟»

الشاب: «نعم، الفنان والشاعر والعالِم».

الشيخ: «إنّ الحاكم المطلق عند كل من هؤلاء يفضِّل ما تزوّده به هذه المِهَن من أسباب المِتَع مهما كانت أجورهم التي يتقاضونها لقاء هذه المِهَن. والآن بعد كل الحالات التي طرحتَها أعتقدُ أنك وصلتَ إلى استنتاج أنّ النزعة الحاكمة تشغلها أمورٌ أخرى مضافة إلى إرضاء النفس، وهذه الأمور تُدعى المنفعة المادية والرخاء المادي أو العملة، وغيرها من الأمور.. أليس كذلك؟»

الشاب: «أعتقدُ أنه لا بدّ لي أنْ أعترف بذلك».

الشيخ: «تمامًا. لعلّ هناك الكثير من الأمزجة التي ترفض الانصياع لأعباء ومشاغل المناصب المهمة بقدر ما يلهثون للحصول عليها. فالنوع الأول من الأمزجة يبحث عن إرضاء النفس فقط دون سواه؛ وهذا هو بالضبط ما يبحث عنه النوع الآخر. وكلا النوعَين يُنشدان إرضاء النفس ولا شيء غيرها. فإنْ كان أحدهما خسيسًا، فكلاهما خسيس ومتساويان في الدرجة أيضًا طالما أنّ الغاية واحدة في كلتا الحالتَين. وفي كلتا الحالتَين يقع الاختيار وفقًا لما يقرِّره المزاج، وطبعًا المزاج فطري وغير مكتسَب».

الخاتمة

الشيخ: «هل سبق وسافرتَ لقضاء عطلة؟»

الشاب: «نعم، قمتُ برحلة جبليّة لمدة أسبوع. هل أنتَ مستعدٌّ للتحدث؟»

الشيخ: «نعم على أتمِّ الاستعداد. مِن أين نبدأ؟»

الشاب: «اسمع إذًا. بينما كنتُ مستلقيًا في فراشي أُنشِد السَّكينة، قضيتُ يومَين وليلتَين أفكر فيما جال بيننا من أحاديث، مدقِّقًا في الأفكار التي طُرحت، فخلصتُ إلى ما يلي: إنكَ... إنكَ... هل تعتزم نشْر أفكاركَ عن الإنسان يومًا ما؟» الشيخ: «على مدى العشرين سنة الماضية ظلّ سلطاني الباطني (ضميري) حائرًا من حينٍ لآخر فيما إذا كان يُملي عليّ تدوين هذه الأفكار على الورق ونشْرها. هل عليّ إخبارك لمَ لمْ يُملِ عليّ ذلك، أم أنك ستفهم السبب ببساطة دون حاجة إلى تفسيري؟» الشاب: «تبعًا لمعتقدك، إنّها البساطة بعينها؛ لقد دفعتْ مؤثرات خارجية ذلك السلطان الباطني إلى إملاء الأمر، لكن ما حال دون صدور الأمر هي مؤثرات خارجية تفوقها قوة.

فلولا هذه المؤثرات الخارجية لما استطاعت أي من هاتَين الدفعتَين أنْ تنشأا البتة بما أنّ عقل الإنسان يعجز عن ابتداع فكرةٍ من تلقاء نفسه»

الشيخ: «أنتَ محق. أَكمِل».

الشاب: «ومسألة النشر أو الامتناع عنه ما زالت محكومة مِن قِبَل سلطانك (ضميرك)، فإنْ حدث يومًا أنْ قرّر النشر جرّاء مؤثرٍ خارجيٍّ ما، فسوف يُملي أمره وسوف يُطاع لا محالة».

الشيخ: «كلامٌ جميل. وماذا لديكَ أيضًا؟»

الشاب: «بعد تفكيرٍ مُضنٍ ترسّختْ لديّ قناعة مفادها أنّ نشر خواطرك سوف يكون ضارًّا. هَلاّ تعذرني؟»

الشيخ: «أعذُرك! لم تقُل شيئًا لأعذرك. فأنتَ لستَ سوى أداة، سوى بوقٍ ناطق، والأبواق لا تتحمَّل مسؤولية ما يخرج منها من أصوات. فالمؤثرات الخارجية التي داومتْ على التكدُّس طيلة حياتك في هيئة تعاليم وتدريبات ومفاهيم وتحيّزات وغيرها من الأمور الثانوية التي عَلِقتْ بشخصيتك، قد أقنعتْ سلطانك الباطني أنَّ نشْر هذه الأفكار سوف يكون ضارًا، وهذا أمرٌ طبيعي للغاية، ومتوقَّع بل إنّه محتومٌ أيضًا.

تابِعْ؛ ولا تحِدَّ عن عاداتك العقلية ليبقى طابع السلاسة والملاءمة في حديثك جليًا؛ فتكلّم عن نفسك مثلاً وأخبِرني بـ: ما رأي سلطانك الباطني بخصوص هذا الموضوع».

الشاب: «حسنًا، إنّ مأخذي على معتقداتك هذه أنها مدمِّرة، لا تبعث على الإلهام أو الحماس أو السمو بالإنسان، فهي تجرّد الإنسان من مجده وكبريائه وبطولته، تنكر عليه حقّه في المفخرة الشخصية والاستحسان. لم يقف الأمر عند حدّ إنزال مستوى عقله إلى مستوى الآلة، بل وأيضًا لا سلطة له عليها؛ كما لو كان طاحونة برّ فلا تسمح له بتعبئة الطاحونة ولا بإدارة ذراع التدوير، فتقتصر مهمته البسيطة والوحيدة في الطحن سواء كان النتاج ناعمًا أم خشنًا، وذلك مرهون بالمكوِّن، أما الباقي فتتكفَّل به الدوافع الخارجية».

الشيخ: أصبتَ فيما قُلت. والآن أخبرني: ما أكثر الصفات التي تؤثر في حالة إعجاب إنسان بآخر؟»

الشاب: «الفكر والشجاعة والبُنية القوية وجمال المحيا والإحسان والخير والتسامح والعطف والبطولة و ... و ...»

الشيخ: «سنقف عند هذا الحدّ؛ ما سبق وذكرته هي عناصر أولية، أما الفضيلة والثبات والقداسة والصدق والإخلاص والمُثُل العُليا، هذه الصفات جميعها وكلّ

ما يتعلق بها من صفات أخرى ذُكِرت في المعاجم، إنما هي مأخوذة عن تلك العناصر الأولية إما عن طريق المزج أو الربط أو تدريج العناصر، وذلك أشبه بطريقة تكوّن اللون الأخضر عند مزج اللونَين الأزرق والأصفر، وكالحصول على درجة من درجات اللون الأحمر بتعديل درجته الأولية.

هناك عدة ألوان أولية متجمّعة في الطيف الشمسي، وضمن مجموعة الألوان هذه يمكننا التعديل والخروج بألوان جديدة تقارب الخمسين درجة ولكلّ منها اسم خاص.

لقد ذكرتَ العناصر الأولية للطيف الإنساني، ومزجتَ البطولة الناشئة من الشجاعة والشهامة. إذًا هلاّ تفضّلتَ وأخبرتني بـ: أيّ من هذه العناصر الأولية يمكن للمتحلِّي بها أنْ ينتجها بنفسه؟ هل هو ذكاء؟»

الشاب: «لا».

الشيخ: «لمَ؟»

الشاب: «لأنّ الذكاء فطري».

الشيخ: «ربما هي الشجاعة؟»

الشاب: «لا، إنّها فطرية أيضًا».

الشيخ: «لعلّها قوة البُنية أو جمال المحيا؟»

الشاب: «لا، فهي موروثة».

الشيخ: «إذًا لنذكر عناصر أخلاقية أولية أخرى كالإحسان والخير والشهامة واللطف؛ بذور حسنة تُزهِرُ إنْ تولّت رعايتها المؤثرات الخارجية، حينها ستنبثق عنها تلك المركّبات المتشعِّبة جميعها من الفضائل المذكورة في المعاجم. خلاصة القول: هل يُنتج الإنسان أيًّا من هذه البذور، أم أنها توَلد معه؟»

الشاب: «تولَد معه».

الشيخ: «ومَن ينتجها إذًا؟»

الشاب: «الله».

الشيخ: «ولمَن يعود الفضل فيها؟»

الشاب: «لله».

الشيخ: «ومَن يستحق التمجيد والمدح اللذين ذكرتهما في نقاشك؟»

الشاب: «الله».

الشيخ: «إذًا أنتَ مَن تحطّ من مكانة الإنسان، حين جعلته يُطالِب بالمجد والمدح والتملّق لِقاء صفاتٍ حسَنة يتحلّى بها. هو لم يكسب شيئًا منها بنفسه، لم ينتج أدنى تفصيل بجهده، لقد جعلتَ منه مُخادعًا؛ فهل قمتُ أنا بعملٍ أسوأ مما فعلتَ أنتَ؟»

الشاب: «لقد جعلتَ منه آلة».

الشيخ: «ومَن الذي خلق تلك الآلة الدقيقة والبارعة، أهو الإنسان؟»

الشاب: «بل الله».

الشيخ: «ومَن خلق القانون الذي بموجبه تدق يد هذه الآلة على البيانو تلقائيًا مقطوعةً موسيقية دقيقة، من دون ارتكاب خطأ، على الرغم من أنّ العازف قد يكون في حالة تفكير في أمر ما يشغله، أو ربما يتكلم مع صديق؟»

الشاب: «الله».

الشيخ: «ومَن خلق الدم؟ مَن خلقَ تلك الآلية البارعة التي تعمل تلقائيًا بدفقٍ متجدِّدٍ ليل نهار عبر كامل الجسد من دون أية مساعدة أو مشورة من الإنسان؟ مَن خلق عقل الإنسان بآليته التي تعمل تلقائيًا ولا تنشغل سوى بما يُرضيها غير مكترثةٍ برغبات صاحبها وإرادته، فتعمل طوال الليل إنْ رغبتْ في ذلك، متجاهلةً مناشدات صاحبها الذي يستجدي الرحمة والرأفة كي ينام؟ لقد خلق الله كل تلك الأشياء. إذًا أنا لم أجعل من الإنسان آلة، بل الله خلقه كذلك. كل ما فعلته هو أني استرعيتُ انتباهك إلى تلك الحقيقة لا غير. هل أخطأتُ في ذلك؟ هل ارتكبتُ جُرمًا؟»

الشاب: «أعتقد أنه من الخطأ إثارة فكرة تنتج عنها أمور لا تُحمَد عُقباها».

الشيخ: «تابِع».

الشاب: «فلننظر في حال المسألة بعدما تبيّن لنا كل شيء. يولَد الإنسان وهو يؤمن بفكرة أنه أسمى آيات الخلْق، ولم ينتابه الشك في هذه الفكرة إطلاقًا على مر العصور، سواء أكان غارقًا في بدائيَّته وعُريِّه أم مُتباهيًا بثيابه المدنية الأرجوانية الفارهة. إنَّ ترسُّخ هذه الفكرة في عقله يُسِرُّ قلبه ويمنح حياته رونقًا. فشعور اعتداده وإعجابه بنفسه الذي يتملّكه ناشئٌ عن نشوة في تصوُّره أنها نتيجة لبطولاته المزعومة، والتهلّل الذي يمنحه إياه المدح والثناء من جرّاء هذه البطولات- هذا ما دفعه إلى تمجيد نفسه إلى أعلى درجات الطموح والحماسة. خلاصة القول: هذا الاعتقاد جعله يدرك أنّ على الأرض ما يستحق الحياة. ولكن كلامي ليس ساريًا وفقًا لمفهومك أنت، والذي يحطّ من

قدْر الإنسان بمساواته مع الآلة وكأنه بلا قيمة. فاعتداده سيتلاشى إلى تِيْهٍ شكليٍّ؛ فهو إنْ سعى قدر استطاعته فلن تكون حالته أفضل من أشدّ جيرانه ذلّة وغباء، لن يعرف الجذل مجددًا، لن يجد بأنّ الحياة جديرة بأنْ تُعاش».

الشيخ: «أتعتقد ذلك حقًا؟»

الشاب: «بلا شكّ».

الشيخ: «هل سبَقَ وأنْ رأيتني حزينًا أو بائسًا؟»

الشاب: « لا».

الشيخ: «حسنًا، لكني مؤمن بهذه الأمور، فَلِمَ لمْ تؤثر عليّ بمشاعر سلبية مُحزنة؟»

الشاب: «إنّه المزاج الفطري بكل تأكيد! وما له مِن أثرٍ في أفكارك».

الشيخ: «هذا صحيح. المزاج يولَد مع الإنسان، فإنْ كان مزاجه بائسًا حينها يعجز أي شيء عن إسعاده، أما إنْ كان مزاجه مرحًا يعجز أي شيء عن تكديره».

الشاب: «ماذا قلتَ؟! ألا تكدّره عقائد مُفسِدة لمنظومة حياته وقاتلة لشغفه؟»

الشيخ: «عقائد؟ مجرّد عقائد؟ مجرّد قناعات؟ إنها مهيضة الجناح، يذهب كفاحها أدراج الرياح عندما يكون في مواجهة المزاج الفطري».

الشاب: «لا يسعني تصديق ذلك ولن أصدِّقه».

الشيخ: «أنتَ تتسرّع في حُكمك، وهذا يبيّن أنك لم تجتهد في تقصّي الحقائق. هيا قُل لي مَن الأكثر تفاؤلاً مِن بين أصدقائك جميعهم؟ برجس أليس كذلك؟»

الشاب: «بلى».

الشيخ: «ومَن الأكثر تشاؤمًا؟ هنري آدمز؟»

الشاب: «بالتأكيد!».

الشيخ: «أعرفهما حق المعرفة. كلاهما متطرّف وشاذ؛ فمزاجهما متنافر كتنافر القطبَين، وتاريخ حياتهما متماثل، لكن انتبه إلى حصيلة هذا وذاك. إنّهما متقاربان في العمر -قرابة الخمسين. لطالما عاش برجس حياته كشخص سعيدٍ مفعمٍ بالتفاؤل والبهجة، أما آدمز فعاش كئيبًا وبائسًا ومتشائمًا. وكلاهما حاولا في شبابهما خَوْض مضمار الصحافة فلم ينجحا. لم يُلقِ برجس بالاً للأمر بينما آدمز الكئيب ولكثرة ندبه وتذمّره لم يتمكّن حتى من الابتسام، كان

يواصل النواح والشكوى والحسرة على أمورٍ مرّت معه ويعذب نفسه بالندم عبثًا، فيَلوم نفسه على قيامه بأفعال تمنى لو قام بغيرها لكان أفضل بالنسبة إليه ولكان ناجحًا. ثم حاولا خوْض مضمار القانون فلم يُفلحا. حافظ برجس على تفاؤله فلا سبيل له غير ذلك، وظلّ آدمز بائسًا فلا سبيل له غير ذلك. ومنذ ذلك الوقت وهذان الشابان يحاولان في شتى المجالات ولكن مآلهما الفشل دائمًا؛ كان برجس يخرج من كل محاولة سعيدًا على خلاف حالة آدمز المتشائم. هذا وقد أصبح لدينا فكرة أنّ المزاج الفطري لهذَين الرجلَين ظلّ ثابتًا من دون أن يطرأ عليه أي تغيير على الرغم من كل التقلبات في شؤونهما المادية التي صادفتهما.

لنتطرّق الآن في حديثنا إلى شؤونهما غير المادية. كان كل منهما ديمقراطيًا مندفعًا، ثم أصبحا جمهوريَّين مندفعَين، ثم قادهما اندفاعهما لينقلبا إلى مستقلّين. كان برجس يلفي السعادة دائمًا كلما انخرط في تيارٍ سياسيٍّ جديدٍ حتى عند هجره إياه، في حين حافظ آدمز على تشاؤمه المعتاد

وفيما يخص الدين فكل منهما اعتنق مذهب الكنيسة المشيخية، ثم مذهب الكونية([10])، ثم الميثودية([11])، ثم الكاثوليك، ثم المشيخية من جديد، ثم الميثودية من جديد. كان برجس يشعر بالسَّكيْنة على الدوام في جميع هذه التقلبات الدينية على خلاف آدمز المضطرب كالمعتاد. وكلاهما يجرِّبان الآن العِلْم المسيحي، وكالعادة ستكون النتيجة المألوفة نفسها بل الحتمية. وكلّي ثقة بأنه ما مِن مذهب سياسيٍّ أو عقيدةٍ دينية بمقدورها تثبيط برجس أو إسعاد آدمز، بل إني أجزم أنها مسألة مزاج بلا شك. فالعقائد مكتسَبة، بينما الأمزجة فطرية، والعقائد خاضعة للتغيير، بينما ما من شيء أيًا كان يمكنه تغيير المزاج»

الشاب: «إنَّ المثال الذي طرحته يتضمن حالتَين من المزاج المتناقِض».

الشيخ: «أجل، وإنَّ الأمزجة الأخرى عبارة عن تعديلات لهذَين النقيضَين، لكن القانون لا يتغير. فإنْ كان مقدار السعادة أو التعاسة في أحد الأمزجة حوالي الثلثَين فما مِن عقيدة سياسية كانت أم دينية بمقدورها تغيير هذه النِّسَب. والغالبية العظمى من الأمزجة تكون متعادلة المقادير؛ فتغيب عنها صفة الكثافة، وهذا بدوره يعمل على تمكين كل أمّة على توليد اتفاق بين نفسها وبين ظروفها السياسية والدينية فتُعجَب بها وتنال رضاها ثم تفضِّلها على غيرها. الأمم لا تفكّر بل تشعر، وهذا الشعور تتوصل إليه عن طريق أمزجة مواطنيها لا عن طريق عقولهم، وبالإمكان اجتذاب أية أمة -بقوة الظروف لا بالمناقشات- لتوفّق بين نفسها وأنواع الحكومات أو العبادات التي يمكن أنْ يتوصّل إليها أي إنسان؛ ففي الوقت الملائم سوف تكيِّف نفسها تبعًا لمتطلبات الظروف، وفي المرحلة التالية تفضّلها على سواها وتقاوم بشراسة

لأجلها. والتاريخ شاهد على ذلك بأمثلة كثيرة: فلديك الإغريق والرومان والفُرس والمصريون والروس والألمان والفرنسيون والإنجليز والإسبان والأمريكيون واليابانيون والصينيون والهندوس والأتراك وغيرهم... ما يقارب الألف من الأديان المتطرفة وغيرها من الأديان السَّمِحة.. لديك أنواع شتى من الحكومات إلى حدٍّ يصعب عليك تصوّره؛ وكل أمة يخال لها أنّها صاحبة الدين الحقّ وأنَّ نظام حكومتها ليس من بعده نظام في عقلانيته، إلى حدّ أنها تستخفّ بمعتقدات ونُظُم سواها، دون أن يخطر في بالها حتى أنهم ليسوا سوى مثالٍ عن الحماقة بذاتها. وكل أمة تزهو بتفوّقها المزيَّف وهي تعتقد أشدَّ الاعتقادِ أنها مُختارة من الله؛ يدعوه الجميع بثقة بالغة أنْ يتولاّهم عند الحروب ويوفِّقهم، ثم يصدمهم توفيقه للعدو، ولكنهم وبِحُكم العادة يختلقون الأعذار ثم يستأنفون تمنيّاتهم ودعواتهم. خلاصة القول: إنّ الجنس البشري بأكمله راضٍ على الدوام ومُصِرٌّ على هذا الرضا دونما زعزعة، بالإضافة إلى أنّه سعيدٌ وممتنٌّ وفخورٌ مهما كانت هوية دينه الذي يتبعه أو نوع الحكم الذي ينقاد له.

هل ذكرتُ شيئًا لا يتطرَّق إلى الحقائق؟ لا، وأنتَ توافقني. هل يغمر الجنس البشري شعور الفرح لحالهم؟ نعم، وأنتَ تعلم ذلك. فإذا أخذتَ بعين الاعتبار الظروف القاسية التي يمرّون بها وعلى الرغم من ذلك فإن السعادة عنوان حياتهم، فأنتَ في هذه الحالة تمنحني وسام الشرف حين تظنّ أنّ بمقدوري أنا أنْ أضع أمامهم نسقًا من الحقائق الفظَّة الظاهرة والتي قد تسلبهم هذه السعادة. لا شيء يمكنه فِعْلُ ذلك؛ لقد جُرِّبتْ الوسائل جميعها ولم يكن النجاح حليفها؛ لذلك أرجو ألاّ تعكِّر صفْوَ ذهنك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الكتاب..

-1-

أ. الآلة البشرية

ب. الفضيلة الشخصية

- 2 -

الدافع الوحيد للإنسان - ضمان إرضاء ذاته

-3-

أمثلة بخصوص الموضوع

-4-

التدريب

-5-

المزيد عن الآلة

-6-

الغريزة والتفكير

Notes

[←1]

(1)- عملية بِسْمِر: هي طريقة لصنع الصلب عن طريق تفجير الهواء المضغوط من خلال الحديد المنصهر لحرق الكربون الزائد والشوائب، وقد سميت العملية والمحول باسم مخترعها هنري بسمر الذي حصل على براءة الاختراع عام 1855. تتم عملية بسمر في حاوية فولاذية بيضاوية كبيرة مبطنة بالطين أو الدولوميت تسمى محول بسمر. (المترجم)

(2)المخارط والمثاقب والمقاشط والخرّامات والصاقلات: هي آلات تُستخدم في عمليات تشكيل وتسوية المعادن. (المترجم) [←2]

[←3]

(3) منسج غوبلين: منسج في باريس أسس في القرن 15، وتعود تسميته إلى مؤسسيه النساجين وصابغي الأقمشة عائلة غوبلين. (المترجم)

(4) فرانسيس باركمان: مؤرِّخ ومؤلف أمريكي. (المترجم) [←4]

[←5]

(5) المشيخية (أو النظام المشيخي) تشير إلى عدة كنائس مسيحية تتبع تعاليم العالم اللاهوتي البروتستانتي «جون كالفين» وتنظم تحت حكم مجالس شيوخ بشكل ديمقراطي. (المترجم)

[←6]

(6) إغناطيوس دي لويولا: فارس إسباني. كان إغناطيوس مصابًا بجرح خطير في المعركة، وفي أثناء مرضه طلب أن يقرأ بعض القصص، فقدموا له بعض سِيَر القديسين، فتحول بعد قراءتها إلى خادم مخلص للسيد المسيح. (المترجم)

[←7]
(7)كان مركيز ورستر قد اكتشف كل هذه الأمور منذ قرون سبقت وات. (المترجم)

[←8]

(8) جورج واشنطن: أول رئيس للولايات المتحدة (1789-1797)، والقائد العام للقوات المسلحة للجيش القاري في أثناء الحرب الأمريكية الثورية، وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة. (المترجم)

[←9]
(9) فرانسيسكو بيزارو غونزاليز: فاتح إسباني. فتح إمبراطورية الإنكا وأسس مدينة ليما، عاصمة بيرو الحالية. (المترجم)

[←10]

(10) الكونية: مصطلح يرمز إلى مفاهيم دينيّة، فلسفيّة حول الكون («ما ينطبق على كلّ شيء»). إنّه مصطلح يقوم باعتماد نظريّات حول جميع الناس في كينونتهم. في الدين، تعتبر «الكونيّة» مبدأ يؤكّد انصياع جميع الناس تحت إرادة ورعاية الخالق، تؤكّد أنّ الكون تحت تصرّف الخالق. (المترجم)

[←11]

(11) الميثودية: أو المنهاجية هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا ولاحقاً من خلال الأنشطة التبشيرية في المستعمرات البريطانية حتى الولايات المتحدة الأمريكية. كانت موجهة بشكل أساسي إلى العمال والفلاحين والعبيد. (المترجم)